

المكتبة الثقافية

١٠

الشرق والإسلام في أدب جويته

عبد الرحمن صدقي

وزارة
الثقافة والإعلام القومي
الأقليم الجنوبي
الإدارة العامة للمعاقرة



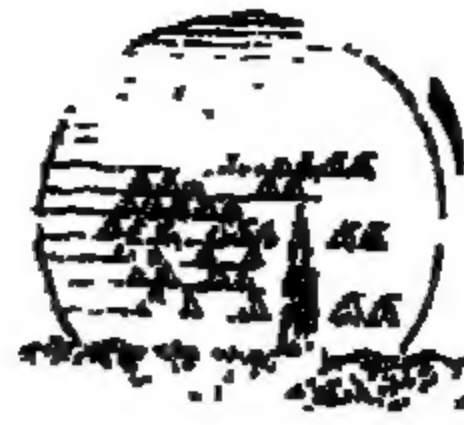
0156365

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

Bibliotheca Alexandrina

المكتبة الثقافية

المستاذ المكتوب
عبد الرحمن صديقي
مدير قسم المكتبة القومية
الاسكندرية



General Organization of the Alexandria Library, (GUAL)
P.O. Box 100, Alexandria

الشرق والإسلام في أدب جوته

عبد الرحمن صديقي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الأقاليم الجنوبية
الإدارة العامة للثقافة

الناشر



دار الفجر

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

مقدمة

ما زال حتى اليوم مقررأ في الأذهان ، ومردداً على كل لسان ذلك البيت المقتضب للشاعر « رديارد كبلنج » :
(الشرق شرق ، والغرب غرب ، وهيهات يلتقيان) .
على حين أن القليل من التقصى في دراسة التاريخ المقارن ،
وسير الحضارات ، ونشأة العقائد والأفكار ، مع التماس الزاخرة
في البحث والعلو عن الأغراض ، كفيل بالتخفيف من تعصب
كل جنس لجنسه ، وادعائه الفضل كله لنفسه .


ولا شك أن طبيعة الإنسان واحدة في جملة تركيبها ، وقرارة
نوازعها . والمطالع لتاريخ الإنسانية من قديم يعجب لها كيف
تحلم منذ الأزل نفس الأحلام ، وتعاني من نقائصها نفس الآلام .
ويرى كيف أن كل حضارة من الحضارات قبلنا ، قد عرض لها
مع اتساع الرقعة واشتباك المصالح ، مثل ما يعرض لنا من
مشكلات ، وكيف أن الفكر البشري بالأمس البعيد كان يشغله
فهم ما نعالج اليوم فهمه من الأسرار والمعميات ، وأن الأولين
على قصور عدتهم قد ألموا بأمهات المسائل كلها ، ولمسوا على

وجه من الوجوه أطرافاً من فروعها . وهذا مادعا إلى قول
القائل : « ما ترك الأول للآخر ؟ »

والحق أنه ما من مشكلة اجتماعية ، أو أزمة نفسية ، أو مطلب
فكري ، إلا وأصوله عريقة ضاربة في القدم . ومن ثمة ما نشهده
من حرص على دراسة الماضي ، وما لا يزال ملحوظاً في عصر كل
نهضة من مراجعة القديم ، والتثبت منه عند كل تجديد حقيقي قويم .
ومن هذا القبيل ما نجده في الحين بعد الحين من إقبال البعض ،
من قادة الفكر ، وأعلامه في الغرب ، على دراسة الحضارات الأولى
في الشرق ، وفي طليعة هؤلاء ، وخير مثال عليهم ، الأديب العالم ،
شاعر ألمانيا الأكبر « جوته » .



صوته الشرق

أواخر القرن الثامن عشر من الميلاد ، في الصميم  من بلاد الشمال ، وتحت سمائه الحاملة ذات الغيوم ، وفي ظلال أشجاره الوارفة من الحور والبلوط ، ظهر شاعر فحل من شعراء الدنيا العظام ، هو : « جوهان وفانج بجوته » ، كبير أدباء الألمان وشاعرهم الأعظم . .

وجوته رجل نادر المثال ، لم ينحصر في نطاق ، ولم يستأثر به أسلوب ، ولم ينذر نفسه لمذهب ، ولم يكظه لون من ألوان الحياة ؛ بل عاش منهوم الحس ظاهره وباطنه ، يستوعب كل ما صادفه ، ويضيف إلى حياته كل ما أمكن إضافته ، كأن همه أن يتحقق في شخصه الإنسان كله ، بجملته وبمعناه الأعم المطلق . وهذا النزوع إلى استيعاب الإنسانية كان حافز حياته الطويلة من أولها إلى آخرها . فاجتمع فيه الشاعر الشاذي ، والعالم الطبيعي ، والمفكر ، والفيلسوف ، واقتسم تأليفه التأثير ، والمحافظ ، والصوفي . ولم يكن نجوته في أدبه بالمواطن الألماني وحده ، ولا بالأوروبي وحده ، بل كان العالمي ، وبعبارة واحدة ؛ تعانق فيه الغرب والشرق . ونحن هنا نقصر كلامنا على جوته الشرق !

الشرق

في قصص "العهد القديم"

كان طبيعياً أن تكون أول إلمامة بالشرق لشاعر نادجوته، في صباه عن طريق التوراة التي كانت أمه كثيرة العكوف على قراءتها ، عميقة التشبع بها . وقد كان والد الصبي شديد السهر على تعليمه ، وهو الذي وضع لهذا التعليم برنامجاً ، ولم يكن يسمح بعد وضعه إياه أن يدخله أدنى تغيير ، أو يحاد عنه قيد أنملة . وكان هذا البرنامج يشمل التاريخ ، والجغرافيا ، والنبات ، والرياضة ، والرسم ، والموسيقى ، فضلاً عن الدين ، كما كان يشمل من اللغات الحية الفرنسية ، والإنجليزية ، والإيطالية ، ومن اللغات القديمة اللاتينية ، والإغريقية ، فضلاً عن العبرانية لغة الكتاب المقدس .

وكانت مدينة « فرانكفورت على نهر المين » ، وهي موطن الأسرة - قد زحفت عليها في مستهل عام ١٧٥٩ أثناء استعداد أهلها للاحتفال بعيد أول السنة ، فرقة من الجيوش الفرنسية المشتركة في حرب السنوات السبع التي كانت تدور رحاها في البلاد الألمانية ، انتصاراً للملكة النمسا « ماري تيريز » ، ضد مطامع « فردريك الثاني » ، ملك بروسيا ، وقد دام احتلال الفرنسيين

لمدينة فرانكفورت منذ ذلك الحين نحو أربع سنوات (١٧٥٩ - ١٧٦٣) وقد أفاد الشاعر من ذلك اختلاطه بالفرنسيين ، وإتقانه لغتهم ، وشهوده لفرقهم التمثيلية ، التي غرست فيسه حب المسرح ، والتأليف المسرحي . ولكن ذلك لم يكن ليشغل فتانا الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره عن دراسة العبرية ، التي بدا لها أنها ضرورية لا غناء عنها ، لفهم التوراة في نصها الأصلي . وقد استجاب والده لرغبته ، فوكل تعليمه في المدة من سنة ١٧٦٢ لسنة ١٧٦٥ للأستاذ البرخت Albrecht وهو خوري ، يلبس المسح الديني ، والشعر المستعار ؛ وكان يتولى إلى جانب تعليم تلميذه اللغة العبرية شرح التوراة ؛ وكانت تلتصع عيناه المحمرتان وتهفو على ثغره ابتسامة متهمكة وهو يشرح له النصوص الدينية ، ناقداً لها في التواء وتورية . وكان يقابل بالضحك ، والسخرية إلحاف تلميذه في السؤال بغية الاستيضاح والفهم ؛ مؤكداً للصبي أنه حري بأن يهني نفسه لو استطاع أن يتلو النص العبري للتوراة مجرد تلاوة ؛ أما فهمها فتلك مسألة أخرى . ولم يكن من شأن هذه الوحزة إلا أن زادت من عناد الصبي ؛ فلم يلبث أن ترجم من السفر القديم بعض نصوصه العبرية إلى اللغة الألمانية .

ولم يكن يدفع جوته إلى هذا الإصرار لإيمانه بالتوراة ؛

و يقينه بأنها منزلة من السماء كما هي بنصها وفصها ؛ واطمئنانه
إلى جميع ما جاء بها . فقد كانت للصبي اعتراضات عليها منذ
صباه ، أثارت عجب أستاذه ، الذي كان يشجعه عليها بضحكاته
المفتعلة ذات الدلالة الخفية . وإنما كان اهتمامه للتوراة ، وإعجابه
بها من ناحيتها الأدبية ، بما تعرضه من وصف للبيئات ، ورسم
للشخصيات ، وعلى الأخص ما تروييه من المغامرات القصصية ،
والمواقف الغرامية .

فلا غرو إذا رأيناه يتحدث عن التوراة على أنها في معظمها
كتاب شعر من أقدم كتب الأشعار . وليس من شك
عندنا في أنه وهو يقرأ منها « سفر أيوب » ، قد ذكر زلزال
لشبونة ، الذي وقع عام ١٧٥٥ فمات مسامعه وهو بعد في السادسة
من عمره أخبار الكارثة وفضائنها حتى روعت أحلامه وزلزلت
إيمانه . ولكن شاعرنا كان كثير الوقوف عند مواضع الحب
الساذج الطبيعي مثل « قصة راعوث » ، وأكثر منها عند « نشيد
الإنشاد » الذي كان دائم الرجوع إليه والتغنى به . وإذا كان شاعرنا
قد أسف على شيء فقد كان أسفه على كون هذه الأناشيد مقطوعات
مقتضية ، وأنها في إيرادها كيفما اتفق ، وتكديسها من غير نسق ،
لا تحمل إليه المتعة الصرفة في أكل صورها ، ولكنه مع ذلك كان

يحس فيها ذلك الجو الشعري ، الذي تفتحت فيه تلك النفوس
الشاعرة ، ويستروح في هذا السفر العاطفي من أوله إلى آخره
مسرى نسمة حلوة دفيئة ، تهب من أرض كنعان الحبيبة ، وتترامى
له حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسطة الرياض
ومنابت الطيب العاطر ، ومن ورائها يأنس زحمة المدن بأهلها ،
ويتخيل فيما وراء ذلك جميعه قصر سليمان في بذخه ، وغلوائه ، بين
المثات من سراريه وأنسائه ، ومع ذلك يبقى الموضوع الأساسي ،
ذلك الهوى المضطرم الناري ، بين قلبين في عنقوان الصبا ،
لا يكفان عن طلب اللقاء ، فإذا كان لقاء أعقبه الجفاء ، ثم
لا يزالان في دفع وجذب في سلسلة متتابعة من مواقف الحب
بلغت الغاية التي لا غاية بعدها ، في السذاجة الأولية ، والبساطة
الطبيعية .

وقد تأثر جوته الصبي بأكثر من قصة من قصص التوراة
العبرية ، فترجم بعض مقطوعاتها شعراً ، مثل «نشيد الإنشاد» ، كما
طاب له أن يضع وهو في هذه السن الصغيرة قصة لغلाम في مثل
سنه ، فكتب «يوسف وإخوته» .

ولم تكن هذه التخريجات للقصص الديني ، والتفريعات عليه ،
شيئاً مستجداً على الألمان . وكان من السابقين إلى ذلك الشاعر

«جوهان بودمر Johann Bodmer» (١٦٩٨ - ١٧٨٣) مترجم
ملحمة ملتون الدينية «الفردوس المفقود» ، فقد تناول قصص
التوراة في شعره ، ومن ذلك منظومتان عن يوسف وأولاهما :
«يوسف وزليخا» وتتألف من نشيدين ، والأخرى : «يعقوب
ويوسف» من ثلاثة أناشيد . ولكن الذى هز ألمانيا كلها هو
صاحب الملحمة المسيحية ، الشاعر «فردريك كلوبستوك
Friedrich Klopstock» ، بما اجتراً عليه من عرضها فى قالب من
الشعر الموزون غير المقفى ، على مثال ملتون ، وما بثه فيها من
الحرارة والانفعال القوى . وقد ذكر جوته تأثره وهو طفل بهذا
الشاعر مع ما كان من إنكار والده لشعره غير المقفى ، ولكنه
نفى أنه قرأ لسلفه «بودمر» شيئاً على الإطلاق أو شيئاً يذكر
من شعر القصص الدينى .

ويقرر جوته فى مذكراته «شعر وحقيقة» فيما رواه عن
صباه ، أنه جعل همه فى قصته عن «يوسف وإخوته» التوسع فى
سردها بأن يدخل عليها هنا وهناك ، وقائع ومواقف زيادة فى
التفصيل ، ليجعل من تلك القصة القديمة الساذجة عملاً أدبياً
مستطرفاً ، وقد بلغ من رضى الغلام عن قصته أن ضم إليها بعض
ما كان قد تيسر له نظمه من أشعار - عدا غير المقفى منها - وجعل
من ذلك جميعه مخطوطة جميلة ، فى مجلد جميل ، أهداه إلى والده .

الشرق الإسلامى

كما يتجلى فى القرآن وفى حياة محمد

وتنقل جوته من الشرق كما تمثله قصص التوراة فى العهد القديم ، إلى الشرق الإسلامى كما يتجلى فى القرآن الكريم وفى حياة محمد النبى العربى . ولا شك عندنا فى أن مطالعة الشاعر الألمانى « سفر أيوب » كانت قد زودته بفكرة رفيعة عما جبل عليه العربى ، من قريحة وطبيعة . وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين هذا السفر العبرى من أسفار التوراة ، وبين العربية . ولكن التحقيق العلى فى عهد « جوته » نفسه قد نفى عن هذا الكتاب نسبته إلى موسى وغيره من العبرانيين ، وأثبتها للعرب المجاورين . وهذا المحقق هو أستاذ شاعرنا « جوته » وأستاذ عصره كله فى أدب العبرانيين ، وتاريخهم ونعنى به « جوهان جودفريد هردر » Johann Gottfried Herder ، إذ يقول فى كتابه عن الشعر العبرى : « إن موسى عندى شاعر عظيم . ولكن القول بأنه مؤلف « سفر أيوب » ، كالقول بأن سليمان مؤلف الإلياذة . ويمكننى القول دون مفاخرة ، أنى درست فى إمعان طابع الأشعار العبرانية كلها . وأدخلت

في حسابي الأحوال المتغيرة ، والسنين المتعاقبة . ومع ذلك ظل
الفارق بين أسفار موسى و « سفر أيوب » كالمسافة بين المغرب
والشرق . وذلك أن الشعر الموسوي حتى في رفيع المقطوعات
لا يخلو من ليونة ونعومة ، بخلاف الشعر في سفر أيوب ، فهو جامع
في إيجازه البليغ ، زاخر بمعناه العميق ، فيه قوة وبطولة ، منيف
على الذروة العليا من العبارة والخيال ، تشهد أفكاره في حدود
جملة وفي تقاطيع تفصيله ، على أنه نسيج وحده ، فلم تتكرر قوالبه
ومعانيه في غيره من أسفار العبرانيين ، كما هو الشأن في هذه الأسفار ،
بما يقطع بأن صاحبه عربي ، من مشايخ القبائل ذوى الثراء ،
وأنه من الأدوميين في الحدود بين العبرانيين ، والعرب الجاهلين ،
وهذا بعينه ما كان قد ذهب إليه بعض آباء الكنيسة الأولين
أنفسهم من اليونان واللاتين ، ومنهم أوريجين والقديس جريجوار
القاتلان بأن أيوب هو نفسه الذي كتب هذا الشعر بالعربية
وهي لغة بلاده الطبيعية ، ثم جاء موسى فترجمه إلى العبرية . وقد أيدت
هذا الرأي بوجه العموم بحوث المتأخرين من العلماء المتخصصين
ونذكر منهم « أرنست رينان » الفيلسوف الفرنسي في كتابه
عن سفر أيوب ، كما أصبح هذا القول من الحقائق المقررة منذ
ذلك الحين . ولا معدى لنا عن أن ننبه هنا إلى أن جوته كان متأثرا


بما جاء من تحدى الشيطان لله في فاتحة د سفر أيوب ، حين ذكر
الله عبده بالتقى والصلاح ، فقد جاء جوته بمثل ذلك في مسرحيته
الكبرى د فاوست ، إذ جعل لها د فاتحة في السماء ، ذكر الله فيها
العلامة فاوست بالخير فتحدى الشيطان ربه في إفساده .

ولقد اتصل د جوته ، أثناء مقامه في استراسبورج (بإقليم
اللزاس) عامي ١٧٧٠ ١٧٧١ بذلك العلامة الأديب د هردر ،
فأذكي في الشاعر غرامه بالشرق ، فكان من أثر إستحثاثه له أن
شرع بعيد عودته إلى بلده فرانكفورت في الاهتمام بالشرق
العربي .

وطبيعي أن لا يكون هنالك ما هو أجلّ قدرا وأبلغ أثرا
من القرآن الكريم ونبي الإسلام العظيم .



القرآن الكريم

ذا « جوته » في فرانكفورت عام ١٧٧٢ يعكف  على تلاوة القرآن في ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته ، المستشرق العلامة « مرجرلين Mergerlin » حتى إذا فرغ منها عكف من بعدها على تلاوة القرآن في ترجمة لاتينية سابقة لها ، طبعها في مدينة بادوا (في الشمال الشرقي من إيطاليا) القس الجزويتي « ماراتشي Maracci » عام ١٦٩٨ وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية .

وما إن أتم جوته تلاوة القرآن في التريجتين ، حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية ، نقلا عن الترجمة الألمانية . ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألماني من الآيات ، بفضل طبعها بعد ذلك في مجلد للمرة الأولى بمعرفة « شول Scholl » عام ١٨٤٦ . وهذه الآيات هي قوله تعالى : « يلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » - « والله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » - « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما

أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث
 فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء
 والأرض ، لآيات لقوم يعقلون ، - ومثل الذين كفروا كمثل
 الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم
 لا يعقلون ، - ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب
 ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب
 والنبیین ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين
 وابن السبيل والسائلین وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ،
 والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء
 وحین البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ،
 وكلها من سورة البقرة . ثم من سورة آل عمران قوله تعالى :
 وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل
 انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ،
 وسيجزى الله الشاكرين ، ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ،
 ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فأمنوا بالله ورسوله
 وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم ، ومن سورة النساء :
 مذنبین بین ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن
 يضلل الله فلن تجد له سبیلا ، . ومن سورة المائدة : ولو أن

أهل الكتاب آمنسوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم
ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل
وما أنزل إليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم .
منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون ، ، يا أيها الذين
آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوكم وإن تسألوا عنها حين
ينزل القرآن تبدلكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حلیم . قد سألها
قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ، . ومن سورة الأنعام :
« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون
من الموقنين ، . ومن سورة يونس : « دعواهم فيها سبعا نك اللهم
وتحييتهم فيها سلام ، . ومن سورة يوسف : « إذ قالوا : أيوسف
وأخوه أحب إلى أئبنا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين ،
ومن سورة الإسراء : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل
وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ، . ومن سورة طه :
« قال رب اشرح لي صدري ، . ومن سورة العنكبوت : « خلق
الله السموات والأرض بالحق ، إن في ذلك لآية للمؤمنين ، —
« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا
لارتاب المبطلون ، — « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ،
قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، .

وقد ظل جوته طويلا يمعن في دراسة القرآن لمعان الباحثين . وهو يقول إن القارى الأجنبي قد يمله لأول قراءته، ولكنه يعود فينجذب إليه ، وفي النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم . ويستشهد جوته في كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات : - ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . ، ويقول جوته إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى في هذا الترييد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون ، لأن محمدا لم يرسل برسالة «شاعر» للتفنن في القول والتنويع في ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وإدخال الطرب ، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف ، وإنما محمد « نبي » مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضوا تحت لوائها . فالكتاب

المنزّل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيه الخبوت والإيمان
لا لمجرد المتعة والاستحسان ، ومن ثمة نراه إذا ما عرض للقصاص
الديني لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار ، بل يقتصر منه على
مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار .

ويظهر في شعر جوته الأخير الذي أسماه « الديوان الشرقي
للمؤلف الغربي » تأثره بالقرآن في روحه وعباراته . فالقارىء
المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة
حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته :

« لله المشرق ولله المغرب ، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعا .
هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق ، سبحانه له الأسماء الحسنى ،
وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علواً كبيراً . آمين .

« ينازعنى وسواس النى » ، وأنت المعيد من شر الوسواس
الخناس . فاللهم اهدنى فى الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم
« ومهما زينت النزعات والشهوات ، فالتفلس لا تذهب شعاعاً
ولا تضيع ضياعاً ، ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والإباء
أن تنطلق عارجة إلى أوج العلاء .

« وللناس فى توريد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير : هذا
يفهم الصدر ، وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيب التركيب .

فاشكر ربك إذا بليت ، واشكر ربك إذا عوفيت .
ويعمد جوته أحياناً إلى التضمنين الصريح . ومن ذلك
تضمنه للآية الكريمة : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً
ما بعوضة فما فوقها ، فيقول في مقطوعة له بعنوان التشبيه :
« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله لا يستحي أن
يضرب مثلاً للحياة بعوضة ؟ »
« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يحلو لي في جمال
عيني الحبيبة ، لمحة من جماله رائعة عجبية . »



حياة محمد بن الإسلام

وغير خاف أن العالم المسيحي كان بطبيعة الحال في أيام الحروب الصليبية وفي أثناء الفتوحات العثمانية في أوروبا سيء الرأي في صاحب الدعوة الإسلامية . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ، ليتسع المجال لتصوير « محمد » على خلاف صورته التاريخية دون تعرض للدعوة الدينية ، كما كانت تتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده ، وقد بلغ من ذلك أن أحرقت نسخة القرآن العربية في البندقية عام ١٥٣٠ وأن حرم البابا إسكندر طبعه وترجمته . وكانت التراجم الأولى للقرآن في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مشفوعة دائماً بالمقدمات ، والحواشي ، والتذييلات في دحضه وتفنيده من قبيل الاعلان من جانب المترجمين عن حسن إيمانهم ، ودفعاً للشبهة عن أنفسهم ، وتزكية لعملهم وتكفيراً عنه في عقيدتهم وعند أهل ملتهم . ثم أخذ الموقف مع دخول القرن الثامن عشر الذي يسمونه « عصر النور » ، يدخل عليه التحسن شيئاً فشيئاً على نحو مستمر ، ولكنه لا يكاد يحسّ به من فرط بطشه .

وكان العالم الهولندي « أدريان ريلان Adrien Reland »
 أول من أمسك القلم من العلماء الأحرار للعمل على رد الاعتبار
 للإسلام ، وصاحب الرسالة في كتابه عن « الديانة المحمدية » ،
 ثم طلع من بعده المستشرق الفرنسي « أرنست جانييه
 Ernest Gagnier » بكتابه « حياة محمد » عام ١٧٢٣ وقد نقل
 فيه إلى اللاتينية سيرة النبي عن المؤرخ العربي « أبو الفدا » ،
 ولا شك أن اعتماد المستشرق على مصادر جديدة غير مصادر
 القوم الخرافية دليل على ترفعه عن التعصب الأعمى ، واعتصامه
 قدر الاستطاعة بروح الإنصاف ، والتزام المنهج الموضوعي .
 واقتفى أثر هؤلاء وتقدم عليهم غيرهم مثل « هنري كونت دي
 بولا نغلييه Henri Comte de Boulainvilliers » عام ١٧٣٠ في
 كتابه « حياة محمد » الذي يأخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث
 عن صاحب الدعوة الإسلامية ، باعتباره رسولا للعناية الإلهية .
 ولقد اطلع شاعرنا بجوته في عام ١٧٧٣ على الجزئين الأولين
 من « تاريخ محمد — مشرع العربية Histoire de la vie de
 mahomet législateur de l'Arabie » مؤلفه الفرنسي « ترين
 Francois-Henri Turpin » وهو من قبيل من ذكرناهم على
 وجه العموم .

ولكنه لا ينبغي أن يغيب عن البال أن ما يسمونه عصر
النور لغلبة الفلسفة العقلية التي مهدت للثورة الفرنسية في أواخره ،
كان دعااته يحملون حملة شعواء على الأديان عامة ، ولا يريدون
أن يروا في أصحاب الدين إلا أصحاب مخزقة دجالين ، يزعمون
للناس أنهم من المرسلين الملهمين ..

ومن هؤلاء د فولتير ، الذي أراد أن يروج لهذا التفكير اللاديني
على المسرح بطريقته الملتوية غير المستقيمة . وقد كان هذا دأبه
ومنهجه الذي درج عليه منذ البداية ، فنراه في مسرحيته الأولى
« أوديب » عام ١٧١٨ يتظاهر بمهاجمة الكهان في الوثنية ، وهو
يعني الكنيسة المسيحية ، كما فهم من أراد الفهم من القارئ
والسامع من منطوق قوله : « إن رجال الدين عندنا ليسوا
كما يتخيله عامة شعبنا ؛ إن عليهم المزعوم كله إنما هو من صنع
وهمنا واعتقادنا » . بيد أن فولتير في هذه المرة أراد أن يتقدم
خطوة أخرى إلى الهدف ، فاستدبر خلفه رجال الدين ، وانتحى
نحو النبيين ولما لم يكن في الاستطاعة - حتى لو واثته الشجاعة -
أن يتعرض في مواجهة جمهور المسرح الأوروبي - وهم في جملتهم
على الدين المسيحي - لأحد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم في
الكتاب المقدس سواء في العهد القديم أو في العهد الجديد ،

فلم يبق أمامه إلا أن يتعرض لنبي المسلمين ، ليتوصل من ذلك إلى
الطعن من طرف خفي على كل نبي . فكتب مسرحيته « التعصب
أو محمد النبي » عام ١٧٤١ ، ورأى إمعاناً في التعمية على رقابة
المطبوعات فضلاً عن الأخذ بالحيلة والاعتصام بالتقية أن يجعل
- وهو المشهور بعداثته للدود للكنيسة - إهداء المسرحية إلى
البابا « بنوا الرابع عشر » ، مختماً الإهداء بقوله : وبعد ، فليأذن
لي - صاحب القداسة - أن أضع المسرحية ومؤلفها عند موطن
قدميه ، وأن أزداد جرأة ، فأتمس منه للمسرحية الرعاية ، ومؤلفها
البركة ، : ولم يكن البابا ليفوته ما يستهدفه « فولتير » من وراء
مسرحيته ، فرد عليه بعد أسابيع بكتاب اقتصر فيه على القول
بأنه قرأ « مسرحية محمد » باهتمام . وقد مثلت المسرحية في مدينة
« ليل » أولاً عام ١٧٤١ ، ثم قدمت « الكوميدي فرانسيز »
في باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركي لدى الحكومة
الفرنسية ، وعقد مؤتمر أذاع إليه كتاب فرنسا الأجرار ،
فأوقفت الحكومة تمثيلها ولم تزد حفلاتها على الثلاث ، وظلت
بعدها تسعة أعوام متوارية في الظلام .

وطبعي أن لا يعنينا هذا الموقف من « فولتير » مادام هو وأمثاله



من كتاب الثورة الفرنسية معدودين من الملاحدة حيناً ، ومن منكرى النبوات عامة في أكثر الأحياء .

وأما الذى يعيننا فى هذا المقام فهو رأى غير المتعصبين من أهل الديانات الأخرى ، والذين لم يختم الله على قلوبهم فلم تظلم بصيرتها ولم ينضب فيها معين الإيمان . وقد ذكرنا كيف تطور هؤلاء ، واعتدل موقفهم وزاد اعتبارهم لفضل الإسلام وإعجابهم بشخصية محمد ، بقدر إيمانهم فى دراسة التعاليم القرآنية ، وإطلاعهم على السيرة النبوية فى مصادرها الحقيقية . وغير جدير بنا مع ذلك أن نتوقع منهم وهم على غير هذا الدين أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الإسلامية، كما نتحدث نحن المسلمين ، بل حسبهم - وهذا قصاراهم - هدمهم الخرافات المزرية التى أشيعت عن محمد فى العالم المسيحى ، وإظهارهم محمداً للعالم المسيحى مؤمناً صالحاً يعبد الله ثابت اليقين ، ومجاهداً أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين .

ولا يسعنا إذا ذكرنا هؤلاء المنصفين إلا أن نضع فى طليعتهم صاحب هذا القول المبين ، وهو شاعرنا دجوتة ، إذ يقول فى بعض أشعار الحكمة من ديوانه :

« من حماة الإنسان في دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه ؛
وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله
فإننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين . »

ولقد كان جوته مولعاً بالمرح منذ حدوثه الأولى . ويرجع ذلك إلى التأثير الذي تركه في نفسه مسرح العرائس الذي أهدته إياه جدته في عيد الميلاد وهو في السابعة من عمره . ويذكر جوته في بعض مذكراته المسماة « تلمذة ولهم ما يستر » ، من أول عروض هذا المسرح ، قصة داود الصبي وجلياط العملاق القوي من قصص التوراة ، ويذكر بعد ذلك كيف قام في هذه السن المبكرة بإلقاء دور كل منهما في لهجة متقنة ، وكيف كان يعيث في مكتبة والده في طلب مسرحيات أفضل من هذه ليخرجها مع أخته العزيزة الدميعة « كورتلياء الصغيرة » ، مع الاكتفاء من هذه المسرحيات بالفصل الأخير سواء أكانت درامات ألمانية أم أوبرات إيطالية ، وكانت الأخيرة هي الأثيرة عنده لأن استخدم عرائسه الخشبية فيها مثل داود وجلياط ، كان أكثر جوازا من استخدامهما في الدرامات العادية . ولقد أعقب هذا التطور ما سبق أن ذكرناه في الفصل السابق من تردده وهو في العاشرة من عمره على الفرق الفرنسية التي جاءت

على أثر احتلال الفرنسيين لبلدته فرانكفورت أثناء حرب
الاعوام السبعة ، وشهوده مسرحياتها مع النظارة المتفرجين
فضلا عن اطلاعه على مايجرى وراء المسرح بفضل معرفته لبعض
المساعدين الفتيان المتصلين بالفرقة .

وقد كان من أثر هذا جميعه ، أن تطلع الفتى إلى محاولة تأليف
المسرحيات من قصص التوراة ، لتمثيلها تلك الفرق الفرنسية وهي
محاولات أحرقها بعد ذلك فيما أحرقه من آثار الصبا ، وهو طالب في
ليزج (١٧٦٥ - ١٧٦٩) . ولقد وضع شاعرنا في هذه المدينة أكثر
من مسرحية بعضها مفقود والبعض موجود بين أيدينا ، سواء
في نصّها ، أو مشروعها ، وهي شهادة بما كان ملازماً لجوته منذ
البداية من الروع بالتمثيلات .

فلا غرابة بعد ذلك إذا علمنا ما انعقد عليه عزم الشاعر
الألماني من تأليف تمثيلية عن محمد ، وشروعه فيها منذ عام ١٧٧٣
إذ نظم منها ذلك العام فاتحة الفصل الأول : د مناجاة محمد ، وهو
فتى ، وقد خلا بنفسه بالليل ، بعيداً في البادية ، تحت سماء صافية سافرة
النجوم . وقد اعتمد الشاعر في المناجاة على مضمون هذه الآيات
من سورة الأنعام في دحض الشرك : د وإذا قال إبراهيم لأبيه
آزر آتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين .

وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من
الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل
قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل
قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس
بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما
تشركون . إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض
حنيفاً وما أنا من المشركين .

وختم الشاعر مناجاة النبي بقوله :

« فارتفع أيها القلب العامر بالحب نحو الخالق .

إنك وحدك مولاي يارب ا

إنك الحب المحيط بكل شيء

خالق الشمس والقمر والكواكب

خالق السماء والأرض ، وخالق نفسى . »

وبعد هذه المناجاة يدير جوته حواراً بين محمد ومرضعته حليلة .

محمد : « يرى شبح حليلة مقبلة » : - حليلة ! أكان لا بد

من قدومها فى هذه الساعة العامرة بالسعادة : « مخاطباً

حليلة » ماذا تريد منى يا حليلة ؟ .

حليلة : لا تقلقنى هكذا يا بنى الحبيب ، إني أبحث عنك منذ

غروب الشمس . لا تعرض شبابك الغض لأهوال
الليل ومخاطره .

محمد : سيات عند الأشرار الليل والنهار . إن الرذيلة وحدها
تجر إلى التهلكة ، كما يستجلب الضفدع سم الأفعى .
وقد يكون الصبا كالنعويذة النافعة تحت هذه
السماء الرائعة .

حليمة : تظل وحدك طول الليل بعيداً في هذه البادية التي يعيش
فيها الذؤبان وقطاع الطريق .

محمد : لست وحدى . إن الله ربي يؤنس وحدتى .
حليمة : رأيتك ؟

محمد : ألا ترينه ؟ عند كل عين جارية ، وتحت كل شجرة
مزهرة ، أراه بعين البصيرة مقبلاً على ، وأحس حرارة
عطفه وحبه . ما أعظم عرفانى لفضله وتسديحى بحمده !
لقد فتح صدرى وانتزع الشغاف عنه حتى أحس قربه
فى الصميم من قلبى .

حليمة : إنك حالم واهم ! فكيف يمكن أن تكون حياً بعد
أن يفتح صدرك ؟

محمد : سأدعو الله حتى يلهمك أن تفهميننى .

حليمة : ومن هو ربك ؟ أهو هبل أم العزى ؟ .

محمد : يا للقوم المناكيد ! إنك تتوجهين إلى الحجر بحبك !
— إنك تطلبين من الصلصال أن يحميك ! هذه الأرباب
ليس لها أذن تسمع الدعاء ، ولا قدرة على تلبية النداء .

حليمة : إن الحجر يعمره عامر ، والصلصال يحوم حوله حاتم ،
ولماته ليسمعني وهو قادر عظيم .

محمد : ماذا يمكن أن تكون قدرته وثمة ثلاثمائة مثله ؟ .

حليمة : أليس مثل ربك أحد .

محمد : إذا كان للرب كفوا ، أ يكون بعدها ربا ؟

حليمة : في أى مكان يحل .

محمد : في كل مكان .

حليمة : سيان هذا والقول أنه غير ذى مكان . فكيف
إذن تدركه ؟ .

محمد : اللهم أبتهل إليك أن تنقذ البشر من ضلالهم ، فهم أجمعون
إليك يارب راغبون ، وإلى وجهك الكريم متطلعون .

وقد ورد في مذكرات جوته التى أسماها « شعر وحقيقة » ،
ما يفيد أنه نظم أشعارا غنائية عديدة لتأخذ مكانها من التمثيلية ،
ولكن ما بقى منها بين أيدينا نشيد واحد كان قد نشره الشاعر

في التقويم الشعري الصادر في جوتنجن Gottingen عام ١٧٧٣
وهذا النشيد على صورة مقطعات يتناوب إنشادها « علي » ، القائد
الشجاع الأمين وزوجته « فاطمة » ، بنت الرسول ، تحية للنبي .
وهو تصوير رائع لهذه القوة التي فجرها الله على يد رسوله خاتم
المرسلين ، ووصف شعري لفيض الإسلام ، وسرعة ذيوعه
حتى انتظم النجاد والوهاد ، وبلغ إلى المحيط الأعظم :

علي : انظروا إلى السيل العارم القوي ، وقد انحدر من الجبل
الشاخ العلي ، أبلغ متألقاً كأنه الكوكب الدري .

فاطمة : لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير في مهده
بين الصخور والأدغال .

علي : ولأنه لينهمر في السحاب ، مندفعاً في عنفوان الشباب ،
ولا يزال في انحداره على جلامد الصخر ، يتنزي فائراً
متوثباً نحو السماء ، مهلاً تهليل الفرح .

فاطمة : جارفاً في طريقه الحصى المجزع والغناء الأحمى .

علي : وكالقائد المقدام ، الجريء الجنان ، الثابت الخطى ،
يجر في أثره جداول الربى .

فاطمة : ويبلغ الوادي ، فتفتح الأزهار تحت أقدامه ، وتحيا
المروج من أنفاسه .

على : لاشئ يستوقفه ، لا الوادى الوارف الظليل ، ولا الأزهار
تلتف حول قدميه وتطوق رجليه ، وترمقه بلحاظها
الواقفة . بل هو مندفع عجлан صامدا إلى الوهاد .

فاطمة : وهذه أنهار الوهاد تسعى إليه في سماح ومحبة ، مستسلمة
له مندوجة فيه ، وهذا هو بحرى فى الوهاد ، نخورا بعبابه
السلسال الغضى .

على : الوهاد والنجاد كلها نخورة به .
فاطمة : وأنهار الوهاد ، وجسداول النجاد تهل جميعاً
من الفرخ متصايحة .

على وفاطمة فى { خذنا معك ! خذنا معك ! .
صوت واحد }

فاطمة : خذنا معك إلى البحر المحيط الأزلى ، الذى ينتظرنا
باسطاً ذراعيه . لقد طال ما بسطهما ليضم أبناءه
المشتاقين إليه .

على : وما كان هذا الفيض كله ليبقى مقصورا على الصحراء
الجرداء . ما كان هذا الفيض ليغيض فى رمال الرمضاء ،
وتمتصه الشمس الصالبة فى كبد السماء ، ويصده الكشيب
من الكشبان ، فيلبث عنده غديرا راكدا من الغدران :
أيها السيل ، خذ معك أنهار الوهاد ! .

فاطمة : وجداول النجاد ،

على وفاطمة في { خذنا معك ا خذنا معك ا .
صوت واحد }

على : هلم جميعاً ، هو ذا العباب يطم ويزخر ، ويزداد عظمة
على عظمة ، هو ذا شعب بأسره ، وعلى رأسه زعيمه
الأكبر مرتفعاً إلى أوج العلا ، وهو في زحفه الظافر ،
بحبب الآفاق ويخلع اسمه على الأقطار ، وتنشأ عند
قدميه المدائن والأمصار .

فاطمة : ولكنه ماض قدماً لا يلوى على شيء ، لا على المدائن
الزاهرة ، ولا على الأبراج المشيدة ، أو القباب المتوهجة الذرى ،
ولا على صروح المرمر ، وكلها من آثار فضله .

على : وعلى متن عبابه الجبار تجرى منشئات السفن كالأعلام ،
شارعة أشرعها الخفاقة إلى السماء ، شاهدة على قوته
وعظمته ، وهكذا يمضي السيل العظيم إلى الأمام بأبنائه .

فاطمة : ويمضي إلى الأمام بيناته .

على وفاطمة في { إلى أبيهم ، ذلك البحر العظيم ، الذي ينتظرهم
صوت واحد } ليضمهم إلى صدره ، وهو يعج بالفرح المميم .

ولعل هذا الحوار الشعري في تحية النبي كان مقصوداً به أن
يكون ختام المسرحية ، أو مشهد ، قبيل ختامها . بيد أن الشاعر

حين ضم إلى مجموعة أشعاره التي نشرها عام ١٧٨٩ هذه القصيدة أدرجها على غير نسق الحوار الذي كانت عليه فجاءت في المجموعة رسالة من غير تقطيع ، وجعل عنوانها «النشيد المحمدي» . ولم تزل فكرة هذه التمثيلية الشعرية عن « محمد » ماثلة في مخيلة « جوته » حتى وضع مشروعا ، وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير تسمو صعوداً إلى الله الواحد الأحد الذي تستمد سائر الكائنات آية وجودها من وجوده . ويكشف النبي بهذا الهدى زوجته خديجة فتؤمن به عن طيب نفس أول من يؤمن .

وفي الفصل الثاني يقوم النبي يناصره « علي » بالدعوة إلى دينه بين عشيرته وقومه ، فيلقى العطف من فريق والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبيعته وتركيب مزاجه . ويقع الخلاف بين التوم وتشدد الملاحاة ويضطر محمد إلى الهجرة .

وفي الفصل الثالث ينتصر محمد على خصومه ، ويظهر الكعبة من الأوثان ، وتستوى دعوته شريعة مقررة ، وتجتمع له أسباب الجهاد قولا وفعلا . ويظهر الرجل السياسي إلى جانب الرجل الديني . وفي الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ويتخذ لها عدتها

ويتوسل بوسائلها . وتقدس له السم امرأة من يهود خبير
ثكلت أخاها .

وفي الفصل الخامس يبلغ محمد أوج كماله وتتجلى عظمته
الروحانية ، ثم تعاوده عقايل السم ، فينتقل إلى جوار ربه .
وبما يؤسف له أن تقف مثل هذه المسرحية عند حد المشروع .
ولقد ظل جوته على إعجابه بالقرآن والإسلام حتى نهاية حياته .
وبما يذكر للاستشهاد به في هذا الصدد أن الجنود الألمانية التي
اشتركت إلى جانب نابليون في حربه الإسبانية حين عادوا إلى
موطنهم بعد نكبته في روسيا وانقلاب حليفته بروسيا عليه ،
كانت فرقة ويمار تحمل في عودتها من إسبانيا صفحة من مصحف
مخطوط عليها السورة الأخيرة من القرآن . فعكف جوته على هذه
الصفحة يحاكي حروفها وكأنما تحمل إليه وهو ينسخها عبر الشرق .
ولم يقر له قرار حتى حصل في ٢٢ أكتوبر ١٨١٣ من المستشرق
« إشتاد Eichstadt » على ترجمتها بالألمانية .

وقد أعقب ذلك في يناير عام ١٨١٤ أن جازت مدينة « ويمار »
في أعقاب الفرنسيين المهزمين أفواج بعد أفواج من الجيوش
الروسية ومن بينها فرقة من فرسان البشكير وهم من رعايا روسيا
التتار المسلمين ، فتمثل عندها في خيال جوته زحف جيوش التتار

في القرن الرابع عشر متدفقين من الشرق إلى الغرب بقيادة تيمور
الأعرج الجبار. وقد نزل فرسان البشكير بالمدينة برهة ، واتخذوا
من ردهة المعهد البروتستانتي مسجدا للصلاة ، فأتيح لأهل ويمار
أن يشهدوا صلاة المسلمين . ولقد بلغ من وقع ذلك في نفوسهم
أن أقبل بعضهم وفي مقدمتهم سيدات المدينة على استعارة القرآن
من المكتبة حتى يكونوا في المعرفة على مستوى المناسبة . ولم يفت
شاعر ناجوته أن يشهد صلاة هؤلاء المسلمين ويسمعهم يرتلون آيات
القرآن الكريم فتأخذه كالقوة الخفية دروعته ، وإن لم يفقهه مبناه
وعبارته ، كما رأى إمامهم واستقبل أميرهم في مسرح ويمار .
وإنه ليذكر في هزة المحبور ، أنهم اختصوه من رعايتهم له بقوس
وسهام ، وكان يعلقها فوق موقده في البيت تذكرا عزيزا باقيا .
وحسبنا هذا شاهدا على سعة أفق دجوته ، وسمو فكره
ونزاهة حكمه وترفعه عن التعصب الشعوبي والديني . ولا يسعنا
نحن المسلمين إلا الاغتباط بموقف هذا الأديب العظيم من الإسلام
وكتابه المبين ، ونبيه الكريم والتابعين .

الشرق العربي

في الشعر الجاهلي

هذا الذي تقدم بنا من عكوف جوته في « ويمار » ،
على مطالعة ما صدر من ترجمات للقرآن العربي ، ومن
تراجم لسيرة النبي العربي الذي أنزل عليه القرآن وأرسل به ،
لم يبق أمام شاعرنا الألماني للإحاطة بالموضوع من بقية نواحيه
إلا أن يطلع كذلك على الشعر العربي القديم .

فلا غرو إذا رأينا « جوته » في عام ١٧٨٣ يبادر بالاتصال
بمكتبة جامعة « جوتنجن Goettingen » لتوافيه بالمعلقات العربية
في ترجمتها الإنجليزية التي أصدرها في لندن المستشرق « ولیم جونز
William Jones » في ذلك العام نفسه ، وما كاد الكتاب يرد على
شاعرنا وتحتويه يده حتى انكب عليه يطالعه في روية وإمعان .
وهكذا عاش الشاعر الألماني في عصر الجاهلية العربي بفضل
ما ترجم إلى اللغات الأوروبية وقتئذ من المجلدات ، تلك القصائد
المطولات التي أحرزت السبق في المسابقات الأدبية التي كانت
تعقد في القبائل في أسواقها الموسمية .

في هذه المجلدات العربية عاش « جوته » مع العرب البادية من

الرعاة للمقاتلة وهم لا يبرحون في غارات إثر غارات ، يؤجج
ضرامها ما كان لا يبرح قائماً بين قبائلهم من ترات قديمة دفيئة
أو خصومات طارئة مستحدثة .

ويقول «جوته» إن هذه المعلقة تحثه بأقوى بيان عن العصبية
التي كانت تربط أبناء القبيلة الواحدة ، وتدلّه على ما انطبع عليه
العربي من روح الإقدام والبسالة ، والتحرز من العار والاستمسك
بذكر الثأر ، وطلاب المجد والتماس الفخار. ويقول إنه إذا كان شعراء
العرب قد استهلوا قصائدهم بالغزل والنسيب ، فليس هذا منهم
بعجيب ، فإن ما يعرضون له في شعرهم من صفة الحرب بفضائلها
الصلبة القاسية ومناظرها الدامية ، قد دعاهم إلى أن يقدموا بين
يدى هذه الصورة القوية للعنجهية الجاهلية ، ما يطفئ حدتها
ويخفف شدتها من وصف محاسن الحبيبة ، وبث لواعج الحب ،
وشكوى الجفاء أو البعد ، وترديد الحنين وتوكيد الحفاظ
على الود .

ويزيد في قيمة المعلقة السبع عند شاعر الألمان أن لكل منها
صفة غالبية تتميز بها ويشوق القارىء تنوعها . وهو يرى فيها
رأى مترجمها المستشرق الإنجليزى ، وخلاصته : أن معلقة «أمرى»
القيس ، رقيقة مرحة ، مشرقة المعنى ، رشيقة اللفظ ، شتى الفنون

ذات رونق مستحب وطلاوة مستطابة . ومعلقة « طرفه » تسم
بالجرأة والحيوية والتوثب ويسرى فيها الابتهاج والتطرب .
ومعلقة « زهير » رصينة متممة ، عفيفة مترفعة ، حافلة بالتحاليم
الخلقية الراجحة والحكم الجليلة النافعة . ومعلقة « لبيد » لطيفة
الوقع بارعة الحكاية أنيقة الديباجة ، يشكو فيها الشاعر من جفاء
حبيبته ، ليخلص من ذلك إلى تعداد مناقبه والإشادة بقييلته . كما
أطالنا معلقة « عنزة » مستكبرة متفاخرة ، متحدية ، متوعدة
بليغة الدلالة ، جزلة العبارة ، وهي مع ذلك حالية بمحاسن
الوصف والاستعارة ، وكذلك ينشدنا « عمرو بن كلثوم التغلبي »
معلقته في قوة عارضة وجلالة مهيبة ونخامة رائعة ؛ وعلى وتيرة
أخرى ينشدنا « الحارث بن حلزة » معلقته وهو فيها غزير الحكمة ،
نافذ البصيرة ، ظاهر السميت وافر الكرامة .

وقراء العربية يذكرون لا محالة تلك الحرب الضروس التي
دارت رحاها طويلاً بين قبيلتي بكر وتغلب من جراء « البسوس » ،
وكيف تصالحت القبيلتان آخر الأمر على يد « عمرو بن هند » ،
أحدملوك الخيرة من آل المنذر ، ثم ما كان بعد ذلك من تنازعهما
في مجلسه ، وقيام « الحارث بن حلزة » شاعر بكر وإلقائه معلقته
التي عطف بها الملك إلى قومه ، وانصراف « عمرو بن كلثوم » ،

شاعر تغلب وسيدها وهو ناظم موغر الصدر ، ثم ما وقع بعد ذلك من دعوة الملك للشاعر التغلبي وأمه إلى زيارة بلاطه وهو يضمن التحرش به والغض من اعتزازه ، فلم يملك الشاعر أن ثار به الغضب ، فوثب إلى سيف الملك - وكان معلقا بجدار الرواق وليس هناك سيف غيره - فضرب به الملك قاتله ، وعاد توأ إلى موطن قومه في الجزيرة الفراتية حيث نظم معلقته التي يقول فيها .

بأى مشيئة - عمرو بن هند -

تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

فإن قناتنا ياعمرو أعيت

على الأعداء قبلك أن تلينا

وكان من شيوخ هذه المعلقة وتناقلها بين الناس ، ومفاخرة بني تغلب بما جاء بها وإكثارهم من روايتها وإنشادها أن قال فيهم الشاعر :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة

قصيدة قائلها عمرو بن كلثوم

يفاجرون بها مذ كان أولهم

يا للرجال لشعر غير مستوم

وقد بلغ من حماسة « جوته » وهو يطالع الترجمة الإنجليزية لهذه المعلقات في عام ١٧٨٣ أن أرسل في الرابع عشر من نوفمبر من ذلك العام نفسه إلى صديق له هو : « كارل فون كنيبل Karl von Knebel » يخبره بعزمه على أن يحاول بدوره ترجمة المعلقات . وقد أمكن العثور على هذه المحاولة أخيراً ، فأضيفت إلى آثار جوته في طبعة ويمار . وبعد سنوات جديدة من هذه المحاولة وقع جوته في ثنايا رسالة للدكتوراه عام ١٨١٤ على ترجمة لاتينية لقصيدة للشاعر العربي الجاهلي الذي استشهد باسم « تأبط شرّاً » ، وهي قصيدته التي يتوعد فيها بني هذيل بالانتقام ، وقد جاءت في باب المراثي في مختارات « الحماسة » لأبي تمام ومطلعها :

إن في الشعب الذي دون سُلّاع

لقتيلاً دمه ما يُطَلُّ

ويقول « جوته » إن لباب هذه القصيدة ونخاع صلبها هو عظمة الشخصية ، وخطر الموضوع وجسامته مع قسوة الأخذ بالتأثر في مشروعيته ، وهو يعقب عليها شارحاً سياقها ، مبيّناً مواقفها ، وكيف أصبحت الحكاية فيها شعراً بحسن تصرف الشاعر العربي في سوق التفاصيل وتدير أوضاعها واختيار مواقعها ، مع البعد كل البعد عن زخارف القول بحيث يبقى على

القصيدة طابع الجذ والحدث الجلل ، مما جعل القارى لها يشهد بعين خياله تطور وقائعها من البداية إلى النهاية ، كما لو كان في موقف صاحبها .

ومما يجدر ذكره أن الشاعر الألماني قد أورد - فيما أورد - قول أبناء العربية في معرض الفخر : إن العرب مطبوعون بفطرتهم على الشعر . وهو يعقب على ذلك بقوله : لا بد في مثل هذه الأمة الشاعرة من نبوغ العدد العديد من فحول الشعراء فإذا اختصوا منهم بالذكر - على تطاول الأزمان وتعاقب الأجيال - سبعة فقط ليكونوا أصحاب المعلقات ، فليس لنا إلا النزول على حكمهم وتلقى قرارهم بالتسليم والإخبات .

وإن القارى لا يتمالك نفسه من الدهشة لما يبيديه جوته من قبول سخي كريم للتشبع بالروح العربي . فقد اجتمع كتّاب الغرب على رأى - لا يخلو من شبهة العصبية الذميمة - وهو أن الحضارة الحديثة مهدها يونان القديمة . فلنسمع هذا إلى الشاعر الألماني ، يعلن في حماسة وإيمان قوى ، عدوله عنها إلى حضارة الشرق العربي ، في حاضرة العباسيين الزاهرة ، على ضفاف الفرات أيام هرون الرشيد والبرامكة .

وهذا مقاله جوته في إحدى مقطعات ديوانه الشرقى :

« دع الإغريق المشال ، يجبل الطينة ، ويصنع التمثال ،
وليفتين بعدها ماشاء الافتتان بالدمية التي أبدعتها يداها الصناعتان .
« أما نحن فإن متعتنا لجة الفرات ، نسبح فيها مسترسلين مع
عنصر الماء ، حتى إذا أرتوت غلة النفس ، تفجرت أفويق الشعر
فياضه مترنمة . فليغترف الشاعر من هذا الفيض بكفه الطهور ، فإنه
ليتكور في يديه مثلاً كالبلاور . »

كذلك يعرض الشاعر الألماني إلى أغراض الشعر ، فلا ينسکر
على العرب تقسيمهم إياه إلى أبواب أربعة : الغزل ، والخمریات ،
والمديح ، والهجاء . وفي ذلك يقول :
« كم هي العناصر التي يتألف منها الشعر فترضاه الخاصة ويلذ
سماعه العامة ؟ »

« إذا قيل شعر ، فالنسيب المقدم . فإن الحب إذا دخل
الشعر زاد نبراته عذوبة وحلاوة . »

« ثم على الشعر أن يردد رنين الأقداح وهي تتلألأ بما فيها
من عتيق الراح كأنها الياقوت ، فالعشاق والندامى هم وخدمهم من
نرتاح لهم ونستطيب مجلسهم . »

« كذلك يطيب في الشعر أن يقرع السمع بصليل السيوف ،
وذوى النفير ، وجلابة الوغى ، فإذا انجلت المعركة عن البطل الظافر

كان من حقه المديح بما أبداه من العزيمة وشدة الأسر، وما أصابه
في ميدان الشرف من الغلبة والنصر .

« ولا معدى للشاعر في آخر الأمر ، عن استنكار أشياء شتى
والتعرض لأصحابها بالهجاء المر ، فما كان لمثله أن يلقي الكريه
القبيح ، بمثل ما يلقي المستحب المليح .

« فإذا اجتمعت للشاعر هذه العناصر الأربعة ، فقد أشاع
الحياة والبهجة بين الورى أجمعين ، إلى أبد الآبدين ،
ويبلغ من تأثير جوته بمطالعاته في الشعر الجاهلي ، أن تستهويه
حياة رجل البادية العربي فيقول في مقطوعة له بعنوان
« المثنى الأربع ، :

« لى يسعد العرب في بيدهاتهم ، راتعين في بحبوحة فضائهم ،
أولاهم المولى ذو الفضل العميم أربع منن :
« أولى هذه المنن : العمامة ، وهى زينة أروع من التيجان كافة .
« ثم الخيمة يحملونها من مكان إلى مكان ، حتى يعمرها كل مكان .
« ثم حسام بشار ، هو أمتع من الحصون وشاهق الأسوار .
« وأخيرا - وليس آخرا - القصيد الذى يؤنس ويفيد ،
ويستهوى أسماع الحسان الغيد ، .

ويسترسل شاعرنا الألماني في حماسته ، حتى ينتهي الأمر
به إلى النقمة على حياة المدنية ، والتكبير والتهليل لما ينعم
به الفارس البدوي من الحرية :

«دعوني - كما أهوى - على صهوة جوادى ، واقبعوا أتم في بيوت
المدر وخيام الوبر ! إلتى لا نطلق جدلان في هذا الفضاء الشاسع
وليس فوق عمامتى إلا النجوم الزواهر . وما زينت السماء الدنيا
بمصاييح إلا هدى للناس وممتعة للناظرين » .

وقد بلغ هذا الشغف بالشرق العربى من جوته غاية مبالغه ،
حتى كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ، وإقامة حروفها ، ورسم
كلماتها ، وتوجيه سطورها من اليمين إلى اليسار على خلاف الكتابة
الإفرنجية . وقد جره هذا الشغف إلى التغنى بالقلم العربى المتخذ
من القصب ، فنظم فيه مقطوعة بعنوان « القلم » .

« تخرج الأرض من القصب هذه الأعواد للترفيه بها
عن العباد .

« فاللهم اجعل أصدق المشاعر وألطف الأفكار ، تفيض
من القلم الذى أخط به هذه الأشعار » .

فاصلة

- بين الهجرة السابقة والهجرة اللاحقة

جوته بعد هجرته الروحية السابقة إلى الشرق السامى **كان** قبل الإسلام وبعده ، قد أخذت ترين عليه بعد عام ١٧٧٦ غاشية من الكلال والملل من شواغل الوظيفة السياسية والإدارية فى بلاط «ويمار» ومن حبه لمدام «دى فون ستين» حباً لم يشغف غلته ولم يؤث ثمرته ، فاشتد شعوره بالحاجة إلى الاستجمام والراحة واشتدت به السامة من «الشمال» حتى صارت أشبه ما يكون بالمرض ، وأصبح عاجزاً عن مغالبة ما ينازعه من الرغبة فى الرحيل إلى الشمس والحياة البسيطة الطليقة الباسمة . وكان لا يزال يذكر منذ الطفولة تلك الرسوم المحفورة التى يعلقها والده فى بيت الأسرة المجدد ممثلة لمناظر إيطالية ، ومن بينها الصراط الصخرى الذى ينحدر بين صفحات الثلوج وخمائل الصنوبر إلى تلك البحيرات الزرق المحفوفة بشجر الزيتون والليمون . ولكن دجوته ، حين سأل الدوق وهما فى «كارلسباد» مدينة الحمامات الحارة فى «بوهيميا» أن يأذن له فى عطلة طويلة للراحة لم يذكر له وجهته بل أخفاها عنه وعن حبيبته وسائر أصدقائه . ثم تعمد السفر خلسة فى الثالث من نوفمبر عام ١٧٨٦ فى الساعة الثالثة

صباحاً باسم مستعار «جان فيليب مولر Jean Philippe Moeller» ،
وكانت هجرته إلى «الجنوب» ، إلى أرض إيطاليا التي قال فيها
في كتابه «ولهم ميستر» على لسان «منيون Mignon» اللطيفة
هذه المقطوعة (عام ١٧٨٤) :

«أتعرف الأرض التي يزهر فيها الليمون بعبيره الزكي
«ويضطرم في دجى أشجارها الوارقة التفاح الذهبي
«وتسرى نسمة حلوة دافئة في سمانها اللازوردية الصافية
«وينمو في رباهها الآس الناضر والغار الفاخر ؟
«أتعرفها حق المعرفة ؟»

«هناك ، أجل هناك ، أريد أن أمضى يا حبيبي معك !» .
ولقد أطل شاعرنا الإقامة في أرض إيطاليا المشرقة حتى
يونيو عام ١٧٨٨ ثم كرر لها الزيارة عام ١٧٩٠ . فلما أن عاد إلى
«ويمار» كان أكثر استعداداً وأسرع اشتياقاً إلى الهجرة الروحية
مرة أخرى إلى الشرق قاصيه ودانيه .

ولقد تحقق حلم «جوته» فاحتوته إيطاليا ، فأخذ يهول
في نجادها ووهادها ، وعلى ضفاف أنهارها وحول بحيراتها ، وخلال
حقولها ووسط مزارعها حيث تخطر العجول الضخمة وتسرع
صغار الخمر محملة ظهورها بالسلال المملوءة ، وقد انتثر الفلاحون

والفلاحات هنا وهناك في « نابولي » و « صقلية » وسهول « لومبارديا »
وهم يعملون في الأرض وفي نفوسهم الرضى والابتهاج بالحياة .
وفي هذه البيئة شعر « جوته » باقترابه من « أمنّا الأرض » ، وأنه
يتصرف بكامل حرّيته في وحدته ، دون اسم يخرجه ومن غير
مهنة تقيده . وقد أبى أن يحدثه دليله المرشد عن التاريخ ، كما أبى
الاهتمام للكائنات ، بل كانت بغيته الاستغراق هنا في جنة الطبيعة
وفي آثار الحضارة اليونانية الرومانية القديمة . وقد ترك لنا
الشاعر هذه الانطباعات المزدوجة في مجموعة من الأشعار أسماها
« أغاني رومانية Romische Elegieen » .

وقد أجمع النقاد على أنها بلغت الذروة حتى قال بعضهم : إنه
لا يذكر في الأدب اليوناني أو الروماني هذا الجمع بين الفكرة
العالية التي تجعل الشعر عظيما وقوة الانفعال الشخصي الذي يجعل
الشعر مؤثرا .

وننقل فيما يلي نماذج من بعض المقطوعات :

المقطوعة الأولى

« أيتها الحجارة ، حدثيني أيتها الصروح الباذخة ، أجيبي !
أيتها الطرق ، انطقي بكلمة واحدة ألا تستيقظين أيتها العبقريّة ؟ »

بلى كل شيء حتى فى أسوارك القدسية يا روما الخالدة . إلا فى
ناظرى وعند خاطرى ، فما برح الصمت على كل شيء مخيما .
« ألا من يوسوس لى فى أية نافذة ! أنا ناظر فى يوم من الأيام
إلى الطلعة الحلوة التى ستحيى لى كل شيء وهى تغننى ؟ أليس لى
أن أهتدى إلى السبيل الذى يدرج فيه وقتى النفيس ذهابا إليها
وليابا من عندها ؟ »

« لم أر حتى اليوم إلا بيعا وصروحا ، وأطلالا وعمدا ،
كالمناخ الحازم الحريص على الفائدة من رحلته . ولكن سرعان
ما أودع كل هذا ، فلا يبقى بعده غير هيكل واحد ، هيكل الحب
يقبل عليه العارف بأسراره .

« أنت يا روما عالم ، ولكن العالم بغير الحب لا يكون عالما ،
وروما لا تكون روما .

المقطوعة الخامسة

بعد أن استحدثت الشاعر علاقة غرامية

« على أرض الآثار تستخفى حماسة قدسية ، وتحدثنى العصور
الخوالى والعصور الحواضر باللحن الجهير فتؤنسنى . هنا أطلع
فكر الأقدمين ، وأقلب بيد الخشوع صفحات أعمالهم فتستجد
لى متعة فى كل نهار ، أما الليل فيشغلنى فيه الحب بشواغل أخرى

فإذا بات حظي من العلم نصفه، فلتقد أصبت من السعادة ضعفيها .
 « وبعد أفليس من التعلم والدرس أن يتأمل البصر تكوير نهدي
 كاعب ، وأن تجرى الكف على استدارة خصر مبتذل ؟ وإني
 لأفهم حينذاك ولا أفهم قبل ذاك ما الرخام ، وما التماثيل ؛ وإني
 لأفكر وأقارن ، وأرى بعين تحس ، وأحس بكف ترى .
 « ولئن سلبتني الغانية سويغات من النهار فإنها تعوضني عنها
 ساعات في الليل . وليس الليل كله بعناق ! فإننا لنحدث فيه
 الحديث الرصين . وتأخذها سنة من النوم فتنازعني ألف فكرة .
 وأنظم بين ذراعيها ، وأقسم بأصابعي الماجنة على ظهرها تفاعيل
 بحر من القريض . وهي في منامها تتنفس فتضرمني أنفاسها حتى
 سويداء قلبي . والحب يتعهد أبدا مصباحه الوقاد ، حالماً بالعهد
 القسديم الذي أدى فيه هذه اللطاف للأسبقين من الولاة
 الرومانيين .

الشرق الأقصى

اطال شاعرنا جوته الإقامة في أرض إيطاليا المشرقة حتى ١٨ يونيو عام ١٧٨٨ ثم كرر لها الزيارة عام ١٧٩٠ فلما أن عاد ثانية إلى وظيفته في بلاط « ويمار » عاوده حينه الروحي إلى الشرق مرة أخرى . ولقد كان لجوته مقنع وأي مقنع في رحلته الروحية الأولى إلى الشرق السامي ، ولكن جوته المفكر العالم هو بعينه جوته المحب الفنان في نزوعه إلى التنقل . ومن ثمة استجاب لما حفزه إليه « هرذر » وغيره من ورود مناهل الثقافة الآرية كما يقولون ، في أدب الشرق الأقصى .

وكان جوته قد اطلع قبيل ذهابه إلى بلاط ويمار على ترجمة ألمانية عام ١٦٨١ لما نشره الطبيب الهولندي « أوليفيه دابرا Olivier Dapper » من البحوث المستفيضة عن الشرق خاصة . وفي هذه البحوث كان المؤلف يكس خرافات الهند كديساً ، معتمداً على الملحمة الهندية الكبرى « مهابهارته Mahabharata » . وقد استوقفه منها على الأخص عقيدة التجسد وما ترويه عن تجسد « الآلهة » Vichnou في صورة الفتى الجميل راما Rama ابن ملك أوده . ثم زواج الأمير راما من ذات الحسن والجمال سيتا Sita

وما كان من نفي « راما » بسعاية امرأة أبيه ثم طمع ملك الجن
« رافانا » ملك الجنوب في الخطوة بزوجه التي بلغه صيت جمالها
فاختطفها على عجلة سحرية حملتها إلى سيلان ، ثم قيام راما إلى
استخلاص زوجها ، واستجاشته أهالي الهند الجنوبية الأصليين ،
وإغارته على سيلان وانتصاره بمساعدة ملك القردة « هانومان » ،
وظفره بملك الجن رافانا وقتله وإنقاذه زوجته الحسنة التي
استهدفت لمحنة أخرى هي ارتياب زوجها فيها ونفيه لها .

ولقد نجح شاعرنا جوته في إحياء هذه القصة على الرغم من كثرة
أسمائها وتشابك أحداثها ، وكان تناوله للقردة المقدس على نحو
مستطرف حبيبه إلى القراء . ولكن شاعرنا يشير في مذكراته
« شعر وحقيقة » إلى أن هذه الخلائق المروعة الهائلة العجيبة
التكوين بعيدة كل البعد عن الحق الذي هو دائماً بغيته المنشودة .
يبد أن هذا التعرف لآلهة الهند العديدة وهذا الاطلاع على
مطولات أساطيرهم والتهيان في شعاب مذاهم حيث تختلط
الشهوات بالقداصات وتلتقي الأرض بالسموات ، قد استولد
فريحة شاعرنا - إلى جانب « الفاتحة المسرحية » في فاوست - جملة
من الأساطير الهندية صاغها في أروع صورة وأبدع نظم ، بحيث
صارت من فرائد موشحاته القصصية من النوع المعروف عند

الألمان باسم Ballade وفي مقدمتها جميعاً أسطورة « الإله
والراقصة » :

« هبط « مراديفنا ، رب الأرضين لليرة السادسة وجعل نفسه
واحداً منا ، وشاء أن يبلو أفراحنا وآلامنا فارتضى هذه الدنيا
سكننا ، ونخضع لكل شيء ، وبعد أن استطلع المدينة استطلع
السائح ، وترصد الأكبر ، ولاحظ الأصغر غادر المدينة في غيبش
المساء ، وابتعد ، وفي ظاهر المدينة حيث تقوم المنازل النائية
الآخيرة لمع صبية جميلة محمرة الخدين من الطلاء ، صبية من
البنات الساقطات .

— سلامي إليك أيتها العذراء .

— شكراً على هذا الشرف ! انتظر ، سأخرج إليك في الحال .

— ومن تكونين ؟

— راقصة وهنا بيت الحب .

ثم نشطت للرقص ورنّت صنوجها ، ودارت في لطف ،
ومالت وتثنت ، ومدت له باقتها خاطبة وده . وكانت فنانة
فاجتذبه إلى عتبة الباب ثم إلى خدرها :

« أيها الغريب الجميل ، لسرعان ما ينير كوخى ، أمتعب أنت ؟

إني هنا رهينة بالتسرية عنك وتدليك قدميك الموجهتين ، لك كل ما تريد من راحة أو نشوة أو مداعبة ،

وأقبلت على الأوجاع المتصنعة تأسوها

وابتسم الإله مغتبطاً بأن يرقب هذا القلب الآدمي الممعن

في الفساد ، فطالبا بما تؤديه الإماء من خدمات ، فإذا هي تهلل

لها وتزيد ابتهاجاً بها ، وإذا هذا الذي كان أول الأمر في الفتاة

تطبعاً يصبح وهي لا تشعر طبعاً غير متكلف . وكما أن الزهرة تخلفها

الثمرة ، فكذلك الإخلاص إذا تفتح في القلب كان الحب غير بعيد .

وقد شاء هذا القاضى الأعظم المتحكم في الرفيع والوضيع أن

يشتهد في ابتلائها باللذة والروعة والألم ، فقبل خدما المطلق بالحجرة

فأحسعت عندئذ لواجع العشق ، وهامت وجداً ، وفاضت دموعها

للمرة الأولى ، وجشت عند قدميه . وما تجثو اليوم - وأأسفاه -

للشهوة أو للذهب ، ولكننا خذاتها أوصالها المتفترة .

وأسبل الليل أستاره الكثيفة . وفي جنح الظلام طابت

الأعراس المسكرة في فراش الغرام . وبعد موهن من

الليل أخذها النعاس بين العنقاق والقبيل . ثم تذهبت

مبكرة بعد هجعة قصيرة ، فألقت مضيقها الحبيب على صدرها ميتاً

فولت وانكبت عليه . ولكن هيهات أن توقظه . وسرعان

ما حملوا الجسد الهامد إلى المحرقة وسمعت الكهان وتراويل الجنازة

فأجهشت ، وانطلقت مسرعة ، وشقت الجمع .
— من أنت ؟ وماذا جاء بك الى المحرقة ؟ .

فانطرحت على النعش وملأت الفضاء بعويلها : « زوجي ، أريد
زوجي ، سأسعى إليه حتى القبر . أتراني مبصرة جماله الأسنى يتساقط
رماداً ؟ لقد كان لي أكثر من كل امرأة سوى . وا أسفاه !
ليلة نشوة وأحدة » .

هذا والكهنة يرتلون : « نحن نحمل الكهول بعد أن استنفدوا
أيامهم وأمل الأجل لهم . نحن نحمل الشباب في ريعان الجمال قبل
أن يخطر الموت لهم في بال » .

ثم يقول الكهنة : « هذا الفتى لم يكن زوجك ، إنما أنت
راقصة ، وليس لك من حق . لا يتبع الجسد إلى ملكوت
الموتى الصامت إلا الظل وحده ، لا يتبع الزوج إلا الزوجة
وحدها . هذا واجبها وهذا نخارها معاً . اعزفي أيتها الأبواق
لحن النعي المقدس . ويا أيها الأرباب الخالدون ، أدعوا لجواركم
من جوف الذهب هذا الفتى فخرزما تناً » .

كذا أنشد الجميع ، فزادوا قلبها التياماً غير راحمين ، فإذا هي
تدفع بمدودة الذراعين ، وتلقى بنفسها في الضرم المودى .

ولكن ، ما هو ذا الإله الفتى يرتفع من جوف الذهب معانقاً
حبيبته . كذلك يرفع الخالدون بأذرعهم الملتهبة الأرواح الضالة
إلى عليين . كذلك تبتهج الآلهة بتدم الخاطئين ..

وإلى جانب هذه الأساطير الهندية المروّعة ، المتصلة بالآلهة
والشياطين وأنصاف الآلهة ، يحلو لشاعرنا «جوته» أن يطالع
حكايات الحكيم البرهمي « بيدبا Pidpai ، التي وضعها على ألسنة
الحيوان لملك الهند «دبشليم» في القرن الرابع قبل الميلاد ، وأنفذ
في طلبها في القرن السادس بعد الميلاد كسرى أنوشروان ملك
الفرس الذي بلغه عنها فأشار عليه وزيره « بزرجمهر » بأن يندب
الأديب المتطبيب المجوسي « برزويه Burzouyéh » الذي أكب
على نقل الكتاب من اللسان الهندي إلى اللغة البهلوية وهي
الفارسية القديمة . وعن البهلوية نقلها إلى العربية عبد الله بن المقفع
في عهد الخليفة المنصور العباسي في القرن الثامن الميلادي . ومن
ذلك الحين تعددت ترجماتها إلى مختلف اللغات ، فترجمت إلى
الفارسية بأمر أمير خراسان نصر بن نوح ، كما ترجمت إلى العبرية
واللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وإلى الفرنسية منذ عام ١٧٢٤
بما يدل على وقوعها موقع القبول عند السكافة ، ولكنها عند
العرب والفرس لها مكانة لا تعدّها مكانة ، لما تنطوي عليه من الخبرة
بالحياة والحكمة العملية . ويعمل «جوته» بقلمهم هذه الحكايات
دون غيرها عن الهند بأن ذلك راجع إلى عدم اتصالها بالوثنية
الهندية ، التي تنفر منها أذواقهم المترفة ، كما تنفر عقولهم من فلسفة
الدين الهندي المعروضة .

السُّرُوحُ الصُّرُوحِيَّةُ

فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارْسِيَّةِ

المتصوفة في جميع الأزمان تغلب عليهم نشوة روحية ، فهم في شبه غيبة عن عالم الحس ، مستهلكون في شوق غامض إلى التجرد عن أشخاصهم والاندرج في حقيقة كلية عليا ، هي الله المحيط بكل شيء . ومعلوم أن الكافة من المتصوفة المسلمين في كلامهم عن الله يعنونونه دائماً بقولهم : « الحق » ، ويعرفون المطلب الأسمى الذي ينشده السالك في طريقهم بأنه « الفناء في الحق » . وهذا الشوق يأنسه في نفسه كل من ينظر إلى الوجود نظرة المتصوفة أو بعبارة أصح يحس به إحساساً تصوفياً ، لأن التصوف إحساس أكثر منه عقيدة . ومن ثمة كانت وجهتنا وجهة المعنى مع تعميم القول من غير تقييد بمصطلح أو تعرض لمختلف الطرق .

فالوجود كله صادر عن الله . ويسمون هذا الصدور بالتجلي . وتجلي وحدانيته سبحانه في خلقاته التي لا يحصى كثرتها إلا هو . فهو حقيقة الحقائق وعين الوجود ، ومنه كل موجود من شاهد ومشهود وروح ومادة ونور وظلمة . وكما أن حركة التنفس

شهيق وزفير ، وحركة القلب بسط وقبض ، وكل فعل من الأفعال له رد . فكذلك هذا التفصيل في الخلائق المترتب على الإيجاد فإنه لا ينتأ متطعاً إلى الاتحاد . وناموس الحب هو السائد في عوالم الروح والنبات والجماد أيضاً حيث يتبدى في صور مختلفات كالجذب والثقل النوعي والمغناطيسية والتزاوج الكيميائي . ولما كان المتصوفة في جماتهم يحسون إحساس الشعراء إلى جانب روحهم الديني ، فهم يشهدون لمحة إلهية في كل شيء : في رواسي الجبال ومعتلج الأمواج وعصف الإعصار يشهدون جبروته . وفي أعماق الفضاء يزدان بالأنجم الزهراء ، وفي امتداد الصحراء تمتد في رأى العين إلى غير انتهاء ، يشهدون عظمتها . وفي ألوان المروج الحالية بالنوار وشتي الأزهار ، وفي مناغاة الجداول ونضرة الخنازل ، وفي نصاعة الثلوج على الذرى ورفيف السنايل الذهبية في نور الضحى وترقرق الأمواه الغضبية في ضياء القمر ، يشهدون جماله . وفي ابتسامة الخضر وحمرة الخجل وإطراقة الطرف من الفتاة العذراء في هولها العذرى للفتى ، وفي قبلة المحب للحبيبة في لطفة غير مريية ، وفي عناق الزوجين تمازجت نفساهما وتجاوب قلباهما ، وفي ضحكة الطفل في لعبه البرى . وفي وفاء الصديق للصديق وفي عون الرفيق للرفيق ، يشهدون حبه .

فهم أبدا في طلب المعاني ، حتى أصبحت عليا عليهم فعرفوا باسم
« أهل المعاني » . وشعر المتصوفة كله شاهد على ما وصفناه من
شهودهم معنى الربوبية في كل شيء . قال شيخهم ابن الفارض : -
تراه إن غاب عن كل جارية

في كل معنى لطيف رائق بهج -
في نعمة العود والناي الرخيم إذا
تألفا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخنائل في
برد الأصائل والإصباح في البساج
وفي مساقط أنداء الغمام على
بساط نور من الأنوار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا
أهدى إلى سحيراً أطيب الأرج
وفي التمامي ثغر الكأس مرثفاً

ريق المدامة في مستنزه فرج
والواصلون منهم إذ يشهدون الله في آيات الخلق ينسون
الخلق جميعاً ويذكرونه ، ويزهّدون في العرض المعروض إلى
الجوهر المكنون . ويغيّبون عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، وعن
عالم الأشباح إلى عالم الروح . فهنا الخير كله والجمال كله . وقد

ذهبوا في استعلائهم على الحسيات إلى قول بعضهم : « إن التصوف هو العصمة عن رؤية الكون ، وعندهم أن التماس الجمال في الخارج تكلف ، لأن الروح مشتملة عليه . والعاقل من يعكف في حرم روحه يستزيدها من الخير والجمال ، فيوسع بالاحتجان والتوفر نطاق وجوده ؛ وبدلاً من توزيع الهمة بين المتعدد ، يحصرها في الواحد ، فإنه في هذا الفيض الروحي عارج إلى مصدر الفيوض وحقيقة الوجود .

وهذا الشوق عند المتصوفة أفاد العاطفة الدينية فنزها عن المقايضة والمساومة ، وارتفع بها إلى أوج الروحانية . فلم تعد علاقة العبد بالرب مجرد الخشية من عذاب المنتقم الجبار ، ولا الطمع في ثواب الغنى ؛ بل الحب الخالص ، كما في قول رابعة العدوية : « إلهي ! ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعا في جنتك ، بل حباً لك ، وقصد لقاء وجهك » . وفي دعاء آخر تبتهل رابعة إلى الله أن يعطي ما كتبه لها من نصيب في الدنيا لأعدائه ، وما كتبه لها في الآخرة لأوليائه ، فإنه هو حسبها .

وهذه المحبة للذات الإلهية تستولي على متصوفه الشرق حتى تتجاوز الحد ، وتضطرم اضطرام العشق ، وتتلون بوهجه . فإذا هم يشكون برح الغرام ، واحتراق القلب بلوائجه ، وكيف أضنى

أجسادهم ويرى عظمهم ، وقرح جفونهم بالبكاء ، وأطال ليالهم
 بالسهاد . ثم يذهبون أكثر من ذلك إلى التشكى من التذلل والصد
 وتمنى القرب والوصل ، وهذا كله حتى هنا سائغ على سبيل المجاز
 ومع كثير من التجوز ؛ إلا أنهم ليحiron اللب حقاً ويتعدون
 كل معقول حين يعرضون للحبوب بالوصف : فإذا بالجبين المسفر ،
 والغدائر المسدلة ، والخذ الأسيل الورد ، وفتور الطرف الأدعج
 وما إلى ذلك مما هو أشبه بالغزل والتشبيب ؛ كقول يحيى الدين
 ابن عربى :

وما رآها بصرى	حقيقى . همتُ بها
قتيل ذاك الحور	ولو رآها لغدا
صرت بحكم النظر	فعدما أبصرتها
أهيم حتى السحر	فبت مسحوراً بها
أعراف مسك عطر	كأنما أنفاسها
فى النور أو كالقمر	كأنها شمس الضحى
نور صباح مسفر	إن أسفرت أبرزها
سواد ذاك الشعر	أو سدلت غيبتها

والحب حاجة قلبية لبنى الإنسان على السواء ، وكأنما يتنفسه
 الأحياء مع الهواء ، وإنما يتوجه به الزاهد عن الدنيا إلى الذات

العليا ، فيكون التغير في المرتبة لا في طبيعة الشعور ، ومن ثمة هذا الاتفاق في التعبير بين شعر التصوف وشعر الغزل . وإنه لتمر بالقارىء الأبيات لولا معرفة ناظمها لتشابه عليه الأمر ، ففهمها على غير وجهها . بل إن المتصوفة أنفسهم ليتمثلون في مواجدهم وحلقاتهم بأشعار العذريين ، ومنهم من يروون أن مجنون بنى عامر روى في المنام ف قيل له ما فعل الله بك؟ فقال : غفر لي وجعلني حجة على المحبين ، . فالحب عندهم كل شيء وقد امتلأت به قلوبهم .

والحب عاطفة مركبة القوى . فالمرء يحب للحب ، ثم لشخص المحبوب ، وكذلك ليحس أنه محبوب . وقد لمست رابعة العدوية هذا التركيب في قولها :

أحبك حين حب الهوى

وحيثاً لأنك أهل لذاكا

وأما ما ذهب إليه الإمام الغزالي من أنها أرادت بحب الهوى حبها لله لإحسانه إياها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة فلا نحسبه التفسير الأرجح ، لما هو معروف من رفضها الدنيا وزهدها حتى أصبحت في أخريات أيامها كالخلال البالى .

ويتوسل السالك الصوفي لحصول الحال التي يشتهاها بالزهد

والتقشف ومجاهدة النفس . ويقول الشيخ علي بن سينا : « فإذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما ، عنيت له خلاسات من إطلاع نور الحق لذينة كأنها بوق تومض إليه ، ثم تخمد عنه . وتسكن عليه الغراشي إذا أمعن في الارتياض ، ثم إنه ليوغل في ذلك حتى تغشاه في غير الارتياض . وتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكونية ، فيصير المخطوف مألوفاً ، والوميض شهاباً يئسناً ، وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صخرة مستمرة ، وينتهي بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذي بها شطر الحق . وحينئذ تدر عليه اللذات العليا . ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق . ويكون له في هذه الرتبة نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه . وهو بعد متردد . ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط . وإن لحظ نفسه فمن حيث هي لحظة . وهناك يحق الوصول . »

وتلك حال من السعادة كما يقول « ابن طفيل » ، لا يقوم بها وصف ، لأنه من طور غير طورها وعالم غير عالمها . ولا يمكن إثباتها على حقيقة أمرها ، لأنه متى حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتابة استحالت حقيقتها ؛ إذ أنها في اكتسابها بالحروف والأصوات ، وتقريبها من عالم الشهادة لا تبقى على ما كانت عليه بوجه ، واختلفت فيها العبارات اختلافاً كثيراً .

وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم . وظن بآخرين أن
أقدامهم زلت وهي لم تزل . وإنما كان ذلك لأنه أمرٌ لانهائية
له في حضرة متسعة الأكناف محيطه غير محاط بها . غير أن تلك
الحال لما لها من البهجة واللذة والحبور لا يستطيع من وصل إليها
وانتهى إلى حد من حدودها أن يكتم أمرها أو يخفض سرها ؛
بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط ما يحمله على
البوح بها بجملة دون تفصيل . ولقد اكتفى الغزالي عند وصوله
إلى هذه الحال بالتمثل بهذا البيت :

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر
ووقف غيره ممن أدب بهم المعارف ، وحذقتهم العلوم عند حد .
أما البعض فقالوا فيها بغير تحصيل مقالات أخذوا بها . ومعظم
الأشعار في وصف هذه الحال فيها جماع واجتراء . والمتصوفة
أنفسهم يعرفونها بالشطحات . ونجزي هنا بترجمة مقطوعة
من ديوان المثنوي لجلال الدين رومي يصور فيها معنى التوحيد ؛ على
حد ما ذهب إليه البعض من أن لفظ « أنا » غير جائز لغير الله لأنه
وحده الموجود بذاته ولا جود إلا به :

« طرق أحدكم باب المحبوب . ففتق به من البيت هاتف : » من
الطارق ؟ » فأجاب : « أنا » فقال الهاتف : « لا يتسع هذا البيت

لى ولك . فانطلق المحب الى الخلاء واختلى بنفسه صائماً مصلياً .
ثم عاد بعد عام وطرق الباب مرة أخرى ، فهتف الهاتف كذلك :
« من الطارق ؟ » فقال المحب : « انت » ، وعندها فتح الباب .
وهذا الشوق من المحب للفناء فى المحبوب له أيضاً نصيب من
الشوق الى المعرفة . فإن الباحث فى رأى الغزالي إذا اعتمد على
المحسوسات لم يلبث أن يداخله الشك فيها ، فإنه لينظر مثلاً الى
الكوكب فيراء صغيراً ، وتدل الأدلة الهندسية على أنه أكبر
من الأرض فى المقدار . فإن هو عول على المعقولات فما يدريه ؟
لعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلى يكذب العقل فى
حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه . وعدم تجلى ذلك
الإدراك له لا يدل على استحالة . وعلى هذا يكون جميع ما تعتقده
فى يقظتك بحس أو عقل إنما هو حق بالإضافة الى حالتك . ويمكن
أن تطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة
يقظتك الى منامك ، فإذا أوردت تلك الحالة تيقنت أن جميع
ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة هى ما تذهب
الصوفية الى إنها حالتهم إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن الحسيات
والعقليات ، وتوصلوا من طريق التواجد ثم الوجد الى تحقيق
وجودهم بالفناء فى الحق سبحانه ، فإن هذا الذى فاتهم إدراكه

بظاهر الحس وبرهان العقل تحصل لهم معرفته بالملايسة والذوق .
هذه هي الصوفية بوجه عام . وقد تعمق شاعرنا الألماني
جوته في دراستها فيما درسه من الشعر الفارسي .

والشعر الفارسي تغلب عليه الروح الصوفية في جملة . ومهما
يكن من تفاوت شعرائهم في ذلك ، فلا بد أن نستبعد من هذا
المجال علما من أعلامهم وهو أبو القاسم الفردوسي (٣٢٩ - ٤١١)
بالتاريخ الهجري - القرن العاشر الميلادي . ولا غرو ، فهو صاحب
ملحمة الشاهنامه التي تزيد أبياتها على الخمسين ألف ، والتي تناول فيها
قصص ملوك الفرس المجوس الأقدمين ، وكانت قد جمعت نثراً
في لغتها الأصلية الفهلوية وهي الفارسية القديمة فتعرض الشعراء
لنظمها في الفارسية الحديثة . ومن سبقوا إلى ذلك أبو منصور
محمد بن أحمد الدقيق ، الشاعر الذي نظمها امتثالاً لأمر الملك نوح
ابن منصور الساماني (٣٦٥ - ٣٨٧ هـ) . وكان آل سامان الذين
استقلوا بخراسان ينسبون أصلهم العجمي إلى « بهرام جوبين » القائد
الفارسي الذي ثار على كمرون برويز ، وكانوا في عصبيتهم
يعملون على إحياء تواريخهم القديمة ، ويشجعون الشعراء على
النظم بالفارسية ، ولقد نظم الدقيق الشاعر من شاهنامه نحو ألف
بيت ، ثم انتهى بجمعه على يد عبد من عبيده اغتاله ايلا . فتطالع

إلى الاضطلاع بهذا العمل العظيم « أبو القاسم ، الذي يروى
ذلك في مقدمة شاهنامته فيقول : (فلما يتس. قلبي من الدقيق ،
توجهت تلقاء ملك العالم ، لعل أظفر بهذا الكتاب — قصص
ملوك الفرس — فأنظمه . سألت أناساً لا يخصصهم العد ، وأنا
أوجس خيفة من تقلبات الزمان ، وأخشى أن لا تمتد بي الحياة
فأتركه لغيري . وكان في المدينة صديق لي كآني وإياه نفس واحدة
فقال : « أنا كفيل بهذا الكتاب الفهلوي فلعلك لا تنام عنه » .
وأحضر إلى الكتاب ، وقال : « إذا يسر الله لك نظم كتاب الملوك
فأهده إلى الملوك » . وكان محمود الغزنوي الذي ولي « خراسان »
من قبل السامانيين قد استقل بها عام ٣٨٤هـ وكان شديد الاهتمام
بنظم كتاب الملوك ، فشنخص أبو القاسم من بلده طوس إلى غزنه ،
وأبلغ ما نظم إلى السلطان وهو قصة « رستم وسهراب » فلما عرضت
على من كان حاضراً مجلسه من الشعراء تحيروا من بلاغة
نظمها ، فعهد إليه السلطان بإنجاز نظم الكتاب كله ، فنظمه
في البحر المتقارب . وكان كلما سمع شعره يردد قوله « سمعت
هذه القصص مراراً ، ولكن نظم الفردوسي شيء آخر »
حتى زعم الزاعمون أنه قال له مرة « إنك صيرت مجلسنا فردوساً ،
ولقبته منذ ذلك الحين بالفردوسي » .

وبديهي أن لا يطلب شاعرنا « جوته » الصوفية في قصائد
 المديح التي كان « الأنورى » يصوغ قلائدها للسلطان سنجر ملك
 خراسان وغيره ممن كان يتعلق بأذيالهم من الكبراء . ويخلبهم
 بسحر الملق والثناء ؛ كما كان طبيعياً أن لا يلتبس بجانبها النورانية
 عند صاحب « حديقة الورد » بقطوفها الدانية « سعد الدين
 الشيرازى » وأمثاله من أصحاب الأمثال الخلقية والحكمة العملية .
 وإنما ورد جوته الصوفية في مناهلها التي استطاع الوقوع
 عليها عند المتصوفة من شعراء الفرس الذين كثيراً ما كانوا
 يصطنعون القصص لبيان طريقتهم وتصوير لطائف أحاسيسهم
 ودقائق مفاهيمهم ، ونذكر منهم « أبو عبد الله الأنصارى »
 الشاعر في قصته المنشورة عن يوسف وزليخا ، وشاعر الحب
 والالم « نظامى الكنجوى » الذى يتابع في شعره القصصى مجرى
 المقادير فيما كان بين الأمير الساسانى خسرو برويز والأميرة الأرمنية
 شيرين ، وما كان فى الرواية العربية بين « ليلي والمجنون » وما دخل
 بين الإلفين العاشقين من عناد الأسرة وملابسات البيئة ، وحكم
 العادات ولعب الأهواء ، وصروف الدهر تفرق بينهما ثم تردهما ،
 ولا يزالان بين فراق ولقاء فى ظروف شائقة عجيبية حتى يحسم
 الفراق الذى ليس بعده تلاق ؛ والشاعر « فريد الدين العطار »

صاحب المثنوية الصوفية « منطق الطير » ، و « تذكرة الأولياء » ،
وقصة « جل وهرمنز » ، والشاعر « جلال الدين رومي » الذي
نشأ في قونية حاضرة دولة الروم السلجوقية وتلقى الصوفية على
« الشيخ الدرويش » شمس التبريزي حتى اشتهر ديوانه باسم « ديوان
شمس التبريزي » ، وأنشأ بعد موت أستاذه طريقة المولوية ، ونظم
آيته الكبرى « المثنوى المعنوي » وهو هنا روح لا تأنس إلى الواقع ،
إذ تجد في كل حدث من أحداثه معضلة ، فتلتبس حل الغازه ، فتجىء
الحلول ألغازا جديدة تحتاج إلى حلول جديدة ، فيلوذ آخر الأمر
بمذهب التوحيد المطلق ، وأخيرا ذلك الشاعر الناصر الذي جمع
الفنون كلها من دينيه وفلسفية وعلمية في شعره ونثره « عبدالرحمن
الجامي » الذي اتخذ من قصته « ليلي والمجنون » ترجمانا عن آرائه
في التصوف في كثير من المواقف .

ولكن شاعرنا الألماني لا يجد صنوه وشقيق روحه إلا في
حافظ الشيرازي « شاعر الغزل » الأكبر الذي جمع في غزله
الحسية الروحية ، وبلغ من نشوة الفرس وطربهم بما نظم في
الحب والجمال أن لقبوه « لسان العيب وترجمان الأسرار » .



ماضى الشرق والغرب

الشرق شرق ولا الغرب غرب ، بل هما على البعد يلتقيان ، كلما تلاقت بالفكر العالى والشعور العميق من هنا ومن هناك نفسان عظيمتان ، تطاول ما تطاول بينهما الزمان ، وتذاوبر ما تذاوبر بهما المكان .

وليسكن فى هذه المرة العظميان الشقيقتان : حافظ الشيرازى أحب شعراء الفرس ، وجوته كبير شعراء الألمان .

ولقد طلع الأخير فى أفق الحياة من ناحية الغرب ، بعد أن غاب زميله فى الشرق بنحو أربعة قرون . وما كاد جوته يحصل فى عام ١٨١٤ على ديوانه الذى كان قد ترجمه بأكمله للألمانية « البارون دى همستر Baron von Hammer Pargstall » حتى رأى نفسه مجلوة فى مرآته ، وأنس فيه مشابهة جمّة من طبيعته ومليكاته وحياته . كلا الرجلين لادعوى له فى عراقة النسب والشرف الموروث وكلاهما طالب متعة يجمع فيها بين الحس والروح . وكلاهما صاحب أثره لم يشغل خاطره إلى حد الإعناء والجهد بأحداث عصره وتقلباته . فهذا شمس الدين محمد ابن رجل من أصفهان نزح إلى شیراز

وأثرى فيها من التجارة ، ولكنه قضى نحبه وأحوال تجارته
مضطربة وزوجه وابنه في إملاق ، حتى اضطر الغلام إلى السعى
في كسب قوته بعرق جبينه . بيد أن الفتى الذكى الفؤاد لم يعدم
الوقت والوسيلة للذهاب إلى مكتب من المكاتب المجاورة للتعلم
وحفظ القرآن . ومن ثمة تسمى في أشعاره باسم «حافظ» .
ولم يلبث أن عاجل قرض الشعر فلم يوفق في البداية توفيقاً يذكر ،
حتى كان في ذات ليلة - كما تصوره لنا الرواية - يتهدد في ضريح
ولى من أولياء الله قائم على رابية في سواد شيراز . فإذا بالإمام
عليّ يدخل عليه ، ويناوله مطعماً لم يذقه قبل من طعام الخلد ،
ويقول له : إنه قد أوتي من اليوم موهبة الشعر ومفاتيح العلوم كلها .
واتصل حافظ بكافة الملوك الذين تعاقبوا في أيامه على ملك
شيراز ، على ما كان بينهم من منازعات . فاتصل بالشاء
« جمال الدين أبو اسحق » من آل « اينجو » كما اتصل بمن غلبوهم
على الملك من آل المنظر مثل « مبارز الدين محمد » وابنه « جلال
الدين المعروف بالشاء شجاع » حتى قضى عليهم الغازى التترى
الجبار « تيمور » (١) .

(١) تيمور معناها في لغتهم : الحديد ، ويذكر اسمه أحياناً تيمور لك
ومعنى لك : الأعرج .

وكان الشاعر شديد الحب لشيراز موطنه ، لا يمل التفتي
بنهرها السلسال وخمائلها المتضوئة ، ومن ذلك قوله : دهات
أيها الساقى كل ما بقى لديك من راح ، فبهات أن تجد في جنة
الخلد مرأشف سلسيل مثل نهر ركناباد أو خمائل ورد مثل
محلة المصلى . ولقد توالى عليه الدعوات من وإلى بغداد وملوك
الهند يستقدمونه بعد أن جابت أشعاره إليهم الآفاق ، ووقعت
من نفوسهم موقع النفائس والأعلاق . ولم يكن الشاعر في هذه
الأثناء جميعاً بالمطمئن إلى ما هو فيه ، أو بالجاهل ما هو ملاقيه
عندهم لو قد لبى الدعوة وأنفذ الزيارة . ولكنه لا يطيق فراق
شيراز . فهو يزجى إليهم المعاذير في أرق الشعر ، مستعفياً من
أول الأمر دون أدنى روية وإعمال فكر . ولقد هم مرة ولكنه
عدل في النهاية فكانت الأولى التي هم فيها والآخرى . إن شيراز
تقيده إلى تربتها ، ولا تسمح له بالفكك حيناً أو ميتاً : نسيم
المصلى ونهر ركناباد يحرمان على المسير والسفر .

ومع هذا فالمدينة التي كلف بها الشاعر وأشرب قلبه حبها
قد حوصرت مرات ، واختلفت عليها أيدي القابضين زرافات ،
وضرجها بالدماء فاتح ، وعمرها باللهو والقصف ثان ، وسامها
الزهد ثالث . وقد شهد حافظ الأقبال والأمراء واحداً بعد

الآخر ، يرتفعون إلى عقوة الملك ثم يزولون ، وتعاقبت على سمعه
وبصره المآسى الفاجعة والأفراح الصاخبة والتماع القنا وأصوات
الوغى وقيام دول وانهار دول ، فأى صدى لهذا فى شعره ؟
لا شىء يذكر إلا أفاريق من المديح المسرف لهذا الملك ثم لذاك
والإشادة بمفاخر هذا النصر وسواه ، والتنويه ببسالة هذا القائد
وغیره ، كما هو المرتقب من شاعر البلاط الخلق بهذا الاسم .
وكان جل ما يعنيه فى قلب الملوك على دست الحكم موقفهم
من إباحة اللذات أو تحريمها . فإذا غلب منهم على شيراز
ذو جهامة وصرامة فأغلق الدساكر ومنع جهد المستطاع شرب
الخمر ، سمعت حافظاً ينفث شكاته فى قصائد عدة تتمثل فيها الشاعر
يساند نفساً تنساقط حسرات ، ويغال ب من سخطه عواصف ثارات ،
فيجتمع من هذه وتلك مزاج بديع من الوجد اللاعج والسخر
اللاذع . كما ترى فى قوله : « مهما تسكن الراح تورث الأفراح
والنسيم يستقطر شذا النسرین ، فأياك وشرب العقار على نغم
الأوتار ، فإن المحتسب قائم لك بالمرصاد . خي الكأس فى
أردان عباء تلك المتقشفة المرقعة ، فإن زماننا كعين الإبريق يسكب
دماً . واغسل خرقة الدرويش التى أنت لابسها بالدمع من بقع
الخمر . فهذا موسم الورع وأوان الزهد ، . ثم قوله ينعى ابنة الكرم .

ويندبها ندب الثاقل اللاهف : « يا ليت أنهم يفضون الأغلاق
عن الحان ، فإذا أمورنا المعقدة قد انحلت وصرنا في أمان !
ألا جزّوا شعور الأوتار حداداً على الصرف العقار ! وسطروا
الكتب تعزية في ابنة العنب . وليندرف عليها الندمان من
جفونهم دماً . هم أوصدوا الأبواب على بيوت الصهباء . فاللهم
نعوذ بك أن يفتحوها على التزوير والرياء ، .

فلما أن تغير العهد ، وتبدلت الحال غير الحال بولاية الشاه
شجاع وعاد اللهو إلى مجراه وفتحت الحانات الأبواب وازدهرت
بجالس الشراب ؛ احتفل بها حافظ متهللاً :

(طرقت مسمعى سحراً بشرى من هاتف الغيب : « هذا
دور الشاه شجاع . فاشرب الراح شجاعاً ، . لقد غير العهد الذي
كان فيه أهل النظر يفترقون ، وعلى ألسنتهم كلام كثير فلا تنبس
بالكلمة الواحدة لهم شفة . سوف ننشد هذه القصة على نغم
الأوتار ، فتجيش لسماعها مراجل صدورنا . ولمكن ، ما لنا
وذاك . إن الملوك أدرى بشئون الملك . وأنت الفقير العاكف
يا حافظ ، فأمسك عن الكلام وعش بسلام) .

وفي مقطوعة أخرى :

« قسماً بما للشاة شجاع من أبهة وسلطان وجلال . ما أنازع

أحدًا على جاه ولا مال ، ولكن ألا ترى لهذا الراقص اليوم
على نغم الأوتار . وكان بالأمس يحرم السماع على الندمان والسياراء .
ويندفع الشاعر وقد أخذته هزة الطرب في نشوتين من سكر
وفرحة ، شامتاً ساخراً ، ومسبحاً شاكراً في منظومة فريدة :
(هل العود : « أين المعارض المنكر ؟ » . وقهقهت الكأش :
« أين المانع الناهي ؟ » . ألا فاطلبوا طول العمر للشاه ، إن كان
طيب الحياة مطلبكم . هو رب الجود والعطاء والكريم ذو
الأيادي البيضاء ، مظهر لطف الأزل ، ونور عين الأمل ،
جامع العلم والعمل ، حياة الوجود : الشاه شجاع) .

وفي هذه المقاطيع التي أوردناها ما يكفي لتعريف القارى
خصائص شعر حافظ . فهو جميل السبك مصقول الحواشي
بليغ الإيجاز متألق الوشى براق يهر الأبصار ، وخيم اللفظ
منغوم النظم يسجر الأسماع ، حلو الإشارة لطيف الحس يفعل
بالألباب فعل السحر .

ولا نحب أن نقف بالقارى عند الصورة التي رسمناها لحافظ في
شبابه من حيث استجابته للمرح والطرب ، فنستدرك عليها حرصاً
على استكمالها بالتنبيه ، إلى أنه كان شديد الولع بالدرس والتحصيل .
فهو إلى جانب حفظه القرآن عن ظهر قلب قد تضرع من علوم

الدين واللغة ، وقرأ على أكبر المشايخ : الكشاف للزمخشري ،
ومطالع الأنوار للنبيضاوي ، ومفتاح العلوم للسكاكي ، والمصباح
وغيرها . فضلا عن كتب الشعر وفصول الأدب وأصول النقد ،
حتى ليقول عن نفسه : « لم يجتمع لحافظ من الحفاظ مثل ما اجتمع
لي مع القرآن . من لطائف الحكماء ، . وكان شاعرنا الفارسي
يجيد العربية كما تشهد قصائده باللغتين . وقد خلف أشعاراً جمعت
بعد وفاته في ديوان كبير بينها المزدوج والمقطعات والقصائد
والرباعيات ، وذلك الضرب من النظم الذي يسمونه الغزل
أخص ما حذقه حافظ .

ومع أن أشعاره في معظمها تدور حول الربيع والورد
والبلبل والخمر والصبا والجمال ، فإن الشراح من المتصوفة وغيرهم
يذهبون إلى أن هذا الظاهر من الصور الجميلة وراءه معان باطنة
عميقة الروحانية . وللشاعر في حقيقة الأمر نفس تصوفية ، ونزوع
إلى النظر فيما وراء التعاليم الخارجية . وهو يطالع في عالم الشهادة
المعاني الغيبية ، ويستجلي الله ذا الجلال في كل شيء . وهو يقول
إن العبادة بالقلب خير وأولى من مجرد القيام بالفرائض
العملية وترديد الذكر على طرف اللسان . ومن ثمة كان دائم
الوقوع في شيوخ الدين والمتصوفة الزاهدين ؛ يهتم ظاهرهم ،

ويكشف وراء العبادات والمراسم عن زيفهم ، ويغمزهم في صحة العقيدة وصدق النية . ونجتزئ على سبيل المثال بقوله :
 « في طريق الخمارة الليلة البارحة ، حملوا على أكتافهم إمام المدينة مخوراً . وأما الإمام فكان يحمل على كتفه سجادة الصلاة » .
 والواقع أن هؤلاء الممخرقين كان لهم في الدولة شأن خطير ، حتى أنه كان من دواعي النبوة بين الشاه شجاع وبين حافظ استخفاف الأخير بفتويه كرمان ، وكان هذا قد علم قطرة كانت له أن تأتم به وتحاكيه قياماً وركوعاً عند الصلاة . فرأى الأمير في ذلك كرامة من كرامات الأولياء ، وراها الشاعر مخزقة من خدع الدجاجة .
 وجعل الشاه الناقم - وهو في نفس الوقت شاعر منافس - يقدح في شعر حافظ لاختلاف بواعثه فهو آونة تصوف وأخرى تعشق وسكر ، وهو طوراً وعظ وروحانية ، وتارة ذلاقة واهتمام بحطام الدنيا . فقال حافظ لمن حوله : « فليكن ما يقال حقاً ، إلا أن الخلق أجمعين على الرغم من ذلك جميعه ليحفظون أشعارى ويلهجون بها ويكثر من ترديدها ، أما البعض ممن لا أستطيع ذكر اسمه ، فأشعاره لا تجتاز أبواب المدينة » .
 فكان من شأن هذا التغريض أن أحفظ الشاه فوق حفيظته ، فانتهر للشاعر بيتاً من الشعر يوقعه في قبضة يده ، فكان هذا البيت قوله :

« إذا كان الإسلام ما يعتنقه حافظ ، فواضيعته للشاعر لو
صح أن بعد اليوم يوماً آخراً » .

ونبه بعضهم حافظاً إلى النية المبيتة على تكفيره استناداً على
هذا البيت . فبادر مضطرباً جزعاً يستفتي ، فأشير عليه بأن
يضيف بيتاً آخر يفهم منه أن الكلام المتقدم جرى على لسان
آخر فتلتفتي التهمة وينجو الشاعر ، على مبدأ « ناقل الكفر ليس
بكافر » . وبالفعل أردف حافظ بالبيت السابق البيت اللاحق .

« فياله قول هزل سمعته سحراً ، من كافر يترنم على
الدف والنأي على باب الحانة » . وأبرز حافظ هذا البيت
مع البيت الأول حين جابهوه بالتكفير ، فسقطت عنه
التهمة ، وسلم من التنكيل ، على أن شبح التكفير لم يزل
في أعقابه حتى وافته المنية ، فلم يسمحوا بأن تقام صلاة الجنازة
على رفاته ، بحجة أن له أشعاراً يرى مشايخ المسلمين تفسيرها
ومخالفتها للدين . وانبرى أنصاره بطبيعة الحال ينضحون عنه
ويدفعون . وأخيراً استقر الرأي على الاستخارة من أشعاره .
فاتفق لهم قوله : « لا تقعد عن تشييع نعش حافظ ، فإنه على
إمعانه في الغواية صائر إلى الجنة » .

وعندئذ أقيمت الصلاة ، ودفن الشاعر على مقربة من شيراز

في ظل شجرة سرو من غرس الشاعر نفسه ، وحول الضريح
بستان يزدهى بالرياحين ، ويشقه طريق يقوم على حفافيه
السرو القديم .

وكان أول من اتصل بهم حافظ من الولاة هو - كما قدمنا -
الشاہ جمال الدين أبو إسحق ، والى إقليم فارس . وكان شاعراً
وصديقاً للشعراء ، ومشتهراً مستهلِكاً في حب اللذات . وكانت
أيامه زواهر ، ولكن خاتم ملسكه الفيروزي - على حد قول
حافظ - قد سطع في أبهى سناه ولم يطل مداه . ذلك أن خاتم
الملك الفيروزي ما لبث أن اتزعه لنفسه « مبارز الدين محمد ، من
آل المظفر . وفي أواخر أيام حافظ طغى تيمورلنك - فيما طغى
عليه من البلدان - على البلاد الفارسية ، كالإعصار الهائل يحتاج كل
ما يصادفه ، تخرب الأمصار ، واستباح المدن وعاث فيها وأفسد ،
وأوسع أهلها سبياً وتقتيلاً ، وأقام من جماعهم الأهرام والمنائر
ولم يرع للخصوم عهداً ، فمن لم يضع فيهم السيف أمر بهم فألقوهم
من حاق . وقد دخل شيراز بعدها دخول الظافر القاهر .
ويروى الرواة مقابلة جرت بينه وبين حافظ من المرجح أنها
أسطورة موضوعة ، ويزعـم رواها أن تيمور أرسل في طلب حافظ
فلما مثل بين يديه عرض له بالنكير لقوله في بيت من أشعاره :

« ذات دل من جوارى الترك مشوقة القدر ، لو اتخذت قلبى عبداً لها
لكنت نعم العبد ، ولبذلت فداء للخال على خدما بخارى و سمرقند ،
لهذا صاح به تيمور : « لقد دويخت معظم العالم المعبود بالطعنات
النافذة من سيفى الصقيل المطرور ، وتركت الألوف من المدائن
والأقطار قاعاً صفصفاً لأزين بأسلابها وغنائمها سمرقند
وبخارى ، بلادى وأزهى حواضر ملكى ، فتأتى أنت الصعلوك
النكد ، لتبذلها من أجل خال على خد جارية تركية من جوارى
شيراز ؟ » فانحنى حافظ حتى مس الأرض وأجاب :

« لقد بهرنى ما للملك العظيم من الأبهة والسرف ، ف وقعت فيما
وقعت فيه من هرف ، .

فسر تيمور من سرعة خاطره وحضور بديهته ، فلم ينزل
بالشاعر ثقلته ، ووصله بجائزة سنية .

. وحسبنا هذه الصورة الجميلة لشاعر الشرق نعرضها ليتبين
المطالع المتأمل أنها تصح في جملتها صورة لشاعر الغرب .

فقد التحق جوته الشاب ببلاط « دويمار » وهى إمارة صغيرة
الرقعة ولكن لها فى تاريخ ألمانيا أكبر الأثر . وقد كان أميرها
دون جوته سناً ، جهم النشاط متيقظ الحس ، لا يكمل من السعى
والحركة ، ولا يغفل عن انتهاز الفرص سواء فى اهتمامه بشئون
الملك ، أو تفننه فى اللهو وانتهاج اللذة . وكان متحمساً للفنون

والآداب يستقدم أصحابها ، ويوليهم المناصب ويجرى عليهم
الرواتب ، ويشعر لهم بالإجلال والكرامة ، حتى اجتمع منهم
في ويمار مالا تفخر بمثيله سائر ألمانيا . وما يؤثر عن الأمير
الفق أنه أمر لجمعته له مكتبة عن الحب تكلف في جمع شواردها
العناء والنفقة . وهو يقرن إلى ذكاء الفؤاد وشوق المعرفة
غرام العواطف الحسية الجامحة ، وكراهة المراسم ، والخشونة
في الطباع والكلام وجفاء المجون والرغبة ، في اللهو العنيف .
وبالجملة كانت له شيمة الجندی تستهوى لبه المخاطر والخمر والنساء .
ولقد اتفقت سليقة الأمير وصديقه الشاعر في عبادتهما للطبيعة
وتذوقهما للحياة والأرض . فإذا ومار تضج في معظم الأحيان
بالأعياد ، ومواكب المساخر ، وحلقات الرقص في ضوء المشاعل فوق
الشلوج ، والصيد والطرود والإجلاب الجوح على صهوات الجياد ،
وركوب المزاج على الجليد . وثمة مجالس الشراب ولعب الورق
والترد ، وثمة الجولات المتنكرة والصبوات المتقلبة ومغامرات
الليل في القصور والقرى المجاورة . والأمير والشاعر متلازمان
كلاهما عارم الفتوة صلب العود موثق البنية ، يروعك مرآه
في بذلة الركوب وحذائه الطويل الغليظ وقبعة السمور وهو يربت
على كلاب الصيد أو يمسح على لبان الفرس . فلا جرم يصدق

عليهما ما كان يقال من أنهما يطويان بياض النهار في الطرد والقنص ، ثم يعقبان بسواد الليل يزجياه سكرأ ورقصاً ولهما .
ولقد يجر الأمير المندفع صديقه إلى حشد الاستهتار وخلع العذار ، في مغامرات شائنة مع الإماء والقرويات ، وبجوب معه معربداً في الأسواق والأعياد العامة ، ويميل به إلى إحدى الحانات المنقطعة ينادمان لعوباً من النساء مؤانية . وكانت ويمار لها مسرحها ، وللسرح فرقتيه ، وفي الفرقة ولا شك حسان مؤانيات ، ويقال إنه كانت للشاعر والأمير مغامرات مع بعضهم .

على أن هذا كما كان يرضى من شاعرنا شياطين حسه ، ولم يكن ينفذ في قلبه إلى شغاف ولا صميم . فالشاعر لا غنى له عن الحب ، وهو لا يحيا حفل حياته إلا به . ولقد ذاق جوته هذا الحب طوال أيامه المرة بعد الأخرى ، ولولاه ما ارتفع على أنانيته ، ولا سبر غور الألم ، وعرف التضحية ، ولا تخرج في الشعر والأدب حكماً ومنشداً . والنساء اللاتي أحبن في مراحل عمره يطول بنا إحصاؤهن ، فيكفيها هنا للدلالة على مبلغ دينه لهن ، ومدى استلهامه منهن ، الاستشهاد بقوله : « الأنوثة الأبدية تجذبنا إلى السماء » .

ولقد قضى جوته حياته يطلب المعرفة بحماسة لا تفتر ، ونهم لا يشبع ، ولم يقتصر هذا الطلب على ضرب من المعرفة دون الآخر ، بل كانت همته تستجيب لدواعيها بلا استثناء ، ويهفو شوقه إلى أسرارها على السواء ، ويتفتح لها قلبه ويحتضنها جميعا في محبة واحدة . فلم يكتف بالتخرج على عرائس الشعر والفن ، بل خاض في العلوم وتوغل في بحوثها كالتشريح والنبات ونظرية النور والألوان وطبقات الأرض ، يستبطن دخائلها ويستجلى غوامضها . وقد اهتدى في بعضها إلى حقائق قيمة هادية .

وفي أيام جوته شبت الثورة الفرنسية وهي انتصار مبين للشعب ولحقوق الإنسان . فهل للعهد الجديد شعراء من سائر الأجناس والملل بحرارة وإيمان ، ومن بينهم شيلر وكلوبستوك وغيرهما من الألمان . وأما شاعرنا فتشكر لهذا الأفق الملبد بالغيوم المدلّمة والرهج المثار ، والدم المراق . ولقد هب ملوك أوروبا ضد الجمهورية ومبادئها . وفي مقدمتهم صمدت لها شاكية السلاح « بروسيا » ، وحليفها أمير ويمار وفي ركابه جوته . ولكن الشاعر كان يتبع شخص الأمير ، من غير كبير اهتمام بالقضية ، لأنه بطبعه لا تحركه أحداث السياسة وتقلباتها . فهو صاحب نفس مفكرة تبحث في

نواميس الطبيعة الخالدة ، وتجدد فيها ما تجده النفوس الأخرى
في طوارئ الساعة من غذاء للحياة وحافز للهمة ، فبينما كانت
المدفعية الألمانية تصب نارها على قلعة فردون ، كان الشاعر في
في شغل شاغل عنها . وذلك أن بعض الجنود الذين كانوا يصطادون
السماك في أحد الغدران لفتوا نظره إلى حطام إناء من الخزف
في قاع الماء يشع موضع الكسر فيه عن أعجب إشعاعات الطيف
وأجل ألوان الموشور ، وقد بلغ من وقع هذه الظاهرة في نفسه
أنها ردت في الحال إلى دراسة البصريات ، وصرفته عن ضرب
القنابل ، حتى لثراه في الليل - المحمر الخواشي الممتمك الجنياب
من مقذوفات النار - يتمشى في هدوء وراء أسوار الحديقة
مع أحد العلماء يحدّثه عن نظرية الانعكاس . ولم يزل هم الشاعر
في حله وترحاله في ميادين الوعي منصرفاً إلى إملاء المذكرات
في البصريات على كاتبه ، وظل إلى ما بعدها حريصاً على هذه
المذكرات يزهر بما علق بها من آثار المطر والوحل كشاهد
صدق على غيرته في البحث ونبالة المقصد .

وبعد سقوط فردون دارت المعركة عند قالمى . وطاف
القائد الفرنسى بالصفوف الأولى رافعاً على شبة سيفه قبعته
وعليها الشارة المثلثة الألوان ، وهتف « لتحيّا الأمة » . فارتفع

هتاف هؤلاء المجندين قاصفاً يصم الآذان . وثارت نخوتهم
ودفعوا العدو بأسته بنادقهم المشرعة ، وانهمز قمرسان ملك
بروسيا الكجاف المجربون أمام من يسمونهم « اسكافية » الجمهورية .
ولقد دام قصف المدافع حتى الليل . وكلما مال ميزان النهار
تضاعف إطلاق النار . حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وذهلت
العقول عن التفكير في المصير . وفي هذه الساعة العصبية خطر
للشاعر أن يمتحن رباطة جأشه وامتلاكه لأعصابه . فقد سمع
أنه في مثل هذا الوطيس يحن جنون المرء وتأخذه « حمى المدفع »
فأراد أن يعجم قوة نفسه ، ويبلو جلده كشأنه وهو في ستراسبورج
إذ كان يصعد في كنيستها إلى الذؤابة من برج الأجراس يصابر
الدوار ويغالبه . وهذا هو اليوم يدفع بجواده إلى المنطقة التي
تصطلي نيران المدافع حيث تنال المرامي هنا وهناك بين الخرائب
فتتشظى الحجارة ، وتتناثر الأعواد والأعشاب ، وهو مسترسل
يراعى في سكينته هذا الحاصب من القذائف المتطايرة يطوقه
ويغوص حوله في الأرض الغريقة المتحللة ، وقد اشتمله حركجر
التنور ، ولكن آنس في عزة المطمئن أن نبضه على حالته من الهدوء .
وما برح العنف يستدعي العنف ، وجوته يزداد كل يوم كراهة
للشورة الفرنسية في عنفها دون أشخاصها ؛ لأن الرجل في كتابه

عن معارك فرنسا قلما يبخس أبناء الثورة نصيبهم الأوفى
من التفاني في البسالة ومن حماسة الإيمان فيما عرض لوصفه من
الهزائم والانتصارات على السواء . ولكنه كان يقول بالتطور
تفادياً من قلاقل الفتن والثورات الدامية . وكان ذلك طبعاً فيه حتى
ليقول في نهاية هذه الفترة :

د إن افتقادي لاستقرار الحياة وتقلب أهواء السياسة
بالناس حبساً إلى عقرداري ، وبودي هنا لو خططت بحولي
دائرة لا يتطرق إليها طارق غير الصداقة والفن والعلم ، .
وهني الشاعر ردحاً طويلاً من الزمن بالراحة المشتهاة بين
أشعاره وبحوثه ومقتنياته وبين منظومة زاهرة من أصدقائه .
وفي مقدمتهم الشاعر شيار وقد أحس إلى جانبه بتجديد حياته .
ثم عاد جزأوروباً إلى الألفهارار . وأعلنت بروسيا
الحرب على نابليون . وامتطى أمير ويمار الركاب مع حليفته
ولكن سرعان ما اندحرت الجيوش الألمانية أمام نابليون وقد أثنى
فيها ومزقها شرمزق . واثالث الفلول المكسورة إلى مدينة ويمار ،
فما عثمت أن دوت المدافع بقربها ، وتطاير الرصاص يصفر
فوق دار جوته ، وهو يسمع إلى أصوات الهاربين من وجه
العدو ، ويلبح أطراف أسيحتهم فوق أسوار الحديقة . زحام

فاجع تتدافع فيه المناكب ، وتتعثر الأقدام ، ويختلط فيه الخابل
والنايل والناس والخييل ، وتتسابق المركبات متصادمة عند
المنافذ ومفارق الطرق . وأينا أدار شاعرنا الطرف فثمة قوائم مدفع
مهجورة وعجلات مهشمة وجرحى هائمون . والعياب الآدمي
الوافد يطم ويربو كل لحظة ميمماً في هربه إلى غربي ويمار .
وبعد هنيهة تبدو طلائع الفرسان الفرنسيين شاهرين سيوفهم ،
وسبائب خوذاتهم مرسله للريح ، وهم وقوف في ركابهم ناصبو
الصدور على صهوات جيادهم الراكضة منتفخه الخياشيم مزبدة
اللغام ، وكأنهم وهم يركضونها في حللهم العسكرية الجراء
شياطين انطلقت على الدنيا . وكان من أمر شاعرنا المستشار
أن أمر لهم بالجمعة والنبذ وعهد بذلك إلى نبلة وكاتبه الخاص .
وقد التمس جوته التشرف بنزول المارشال د ناي ، في
ضيافته ، وقامت قعيدة داره كرستيان - ولم يكن عقد زواجه عليها
بعد - تخدمهما على المائدة ، إلا أنها كانت أكثر استئناساً
بالضباط وإن تعرضت أحياناً لسوء مجونهم . وقد رأى
«جوته» في هذه الآونة إجراء العقد عليها وإشهار الزواج
بها .

وبعد شهور جرت المقابلة المشهورة بين الأباطور

والشاعر . ومقابلة الأمبراطور تجرى عادة في الصباح أثناء
طعام الفطور . وكان النزول في حركة مستمرة ، والأروقة والدهاليز
غاصّة بالقواد وأركان الحرب ، والحلل المقصبة تتعاقب
على العين في جيئة وذهوب ، وسيوف الاحتفال بجرجرة تصل
على الدَرَج . وأقبل جوته في حلة الديوان منسق الهندام مرجل
الشعر . فطلب إليه الانتظار حاجب بدين ، وفي رواق الانتظار
نعرف إلى بعض القادة الكبار . وانفتح الباب ، ودعى الجمع
كله ، ودعى جوته للدخول . فوج إلى القاعة الفسيحة ، وفي بهرتها
منضدة ضخمة مستديرة يجلس إليها رجل ربعة ممثلي مله جبين مقبب
انحسر عنه الشعر ، يتناول إفطاره في صحاف الفضة ، ويبدو في
الأربعين من عمره . هذا هو الأمبراطور . وكان واقفا على يمينه
د تاليران ، وأدنى منه على يساره دارو ، والحديث دائر في
شئون المال وخراج الحرب . ووقع نظر نابليون على الشاعر
فأوما إليه بانلدو . فاقرب إلى مسافة لائقة ، فحدد إليه الطرف
ملياً يتوسم ثم قال :

— إنك لرجل حقاً .

فانحنى الشاعر ، واستأنف الأمبراطور :

— وكم سنك ؟

— ستون يا مولاي .

— إنك لم دخر العافية .

ومضى يقول إنه يعرف له لمكانة الأولى بين شعراء المأساة
الألمان . ثم عرج على رواية « فرتر » ، فذكر أنه طالعها سبع
مرات واصططحبها معه إلى مصر في حملته الغابرة ، وأنه يعرفها
حق المعرفة ، وأبدى عليها بعض الملاحظات . وامتد الحديث
بينهما واستفاض ، وكان نابليون طوال هذه الأثناء ظاهر الصفاء
والإيناس يبدى استحسانه بإيماءة يشفعها في لهجة قاطعة بقوله :
« هذا حسن » . وهو ناشط الحركة ناطق الأسارير . وكان يردد
أحياناً لنفسه بصوت مسموع أجوبة الشاعر الألماني ليتفهم
معناها جيداً من خلال كلامه بالفرنسية المقلقة ، كما كان أحياناً
إذا أدلى برأيه في نقطة بعد المذاكرة يقبل في بشاشة على الشاعر
متسائلاً : « ما ظن المسيو جوته في هذا ؟ » .

وحين انتهت المقابلة انحنى الشاعر مستأذناً . فلما انصرف
التفت الإمبراطور إلى من حوله راضياً وقال : « هاكم رجلاً ،
واطردت الأحوال على أحسن منوال إلى أن غضب نابليون
على قيصر روسيا وتوغل في بلاده ليعاقبه على حد قوله . ومضى
يتنقل من نصر إلى نصر حتى موسكو . فأحرقها الروس . وحل

الشتاء داهما مبكراً فارتد نابليون أمام روسيا المتلفة بالشبح والجليد . وقتك الزمهرير بالجند الإمبراطوري فتك الذريع . فكانت الجثث تتساقط كأنها معالم طريق في كل مرحلة من مراحل القهقري . وإذا الجيش العرمم الذي كان يسد الأفق لا يزيد حين معاده على قبضة من الرجال ، وتألبت على النسر المبيض الملوك والشعوب التي سادها ، وانقلبوا عليه بعد إذ كانوا في ركابه . فإذا أوروبا التي كانت معه ، تقوم اليوم مع روسيا في وجهه .

وتحين الفرصة لخلاص ويمار من الحكم الفرنسي . ولكن الشاعر يشفق من ذلك . فهو معجب بنابليون وهذا به معجب . كما أنه يأس انحدار نجمه في نظر الألمان وانقطاع أسباب التعاطف معهم بعد مؤلفات صباه ، بمقدار ما كانت تسطع شهرته وتتألف القلوب حول أدبه خارج ألمانيا في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا . وبالجملة كان من ناحية لا يطمئن إلى الانتفاض على نابليون « بطل الأقدار ، كما يصفه ، حتى قال يوماً لدعاة الاستقلال : « إنما تقعقعون بسلاسلكم ، فالرجل كبير عليكم ، وقصارى أمركم أن تزيد السلاسل حزاً في لحومكم ،

وكان من ناحية أخرى يسوؤه أن يرى إمارة «ويمار» تجلو

عنها سيادة باريس لتخلفها سيادة برلين . فهو يعمقت البروسيين
أشد المقت لانطباعهم بطابع الشكنة والروح العسكرية وغلوائهم
في الدعاوى الحربية .

وهذه هي بروسيا في طبيعة الخارجين ، تنضم فيالقها إلى
الكراديس من القوزاق الروس . ثم تأتي لنجدتهم كتائب
النساء إذ ينحاز إمبراطورها إلى أعداء صهره ، ويمهر بإمضائه
عهد التحالف معهم . لقد اتسعت رقعة الوغى ، ونشبت معركة
الأمم ، فهي جميعاً لب واحد على نابليون .

وتبدلت الحال في ويمار المدينة الزاهرة بالآداب والفنون ،
فهي تعاني الاحتلال البروسي بما فيه من شدة وتزمت ،
وما يستتبعه من تضيق وتسخير وإيواء للجند الجفاة الغلاظ
حتى ليقرع أذن المستشار الشاعر على درج قصره وفي دهايزه
رنين نعالهم الضخمة الموحلة ، فضلاً عن تقاطر الجرحى والمرضى
وتفشي الأوبئة والحيات .

أيام كئيبة حقاً يطيش لها عقل الحليم إلا جوته ، فإنه يعتصم
دائماً من ذاك بالهرب من الحاضر : « لم يبلغ بي الهرم أن أشغل
بالي ، وأقلق خاطري بتاريخ العالم فهو أسخف شيء . فليهلك هذا
أو ذاك ، ولتندثر هذه الأمة أو تلك فكله سواء . »


وزاد اعتزال الشاعر لما حوله وأبعد بفكره أميالا بعد
أميال ، وارتفع أطياناً فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان
والمكان وانفتحت له من خلال ديوان حافظ الشيرازي أبواب
الشرق مهد الإنسانية بما فيه من أوضاع للشعر والاجتماع
والاخلاق والدين تختلف عما يعهده . تخلص جوته من هذه
وتلك إلى صميم الحياة ، إلى الوحدة والبساطة . فكل شيء في كنهه
بسيط وغاية في البساطة ، والأشياء كلها سواء ودائماً سواء ،
وما التعدد والتعقد إلا أطوار وأحوال .

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت إلى حياته
بأقرب وشائج القربى ، حياة عاشها هو أيضاً ، حياة نفس تطالع
الوجود في ذاته بمنتهى الحرية واللذة ، ولا تقطع ما بينها وبين
الأرض ، وتواجه الجود والتعصب بالتصوف الحى والإحساس
بالشمول . لكأنما هي حياة «جوته» هذه التى يحكيها حافظ .
الممالك تنهار ويقوم الغاصبون في إثر الغاصبين . فلا تسمع منها
غير الغناء بنجوى نفوسها وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة .
وكلاهما يقف رنجاً لوجه أمام قاهر طاغية : هذا أمام تيمورلنك ،
وهذا أمام نابليون فلا تتخذ عبقرية الأدب في وجه عبقرية
الحرب . إن «جوته» لما خرد بهذه المشابهة يهتز لها من فرعه إلى

قدمه ، فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر ، فإنما يتصل هذان
العالمان باتصال نفسيين كبيرتين من الجانبين . وهذا هو جوته
يحس في لقاء حافظ بالشرق والغرب يلتقيان فيه وتضمهما دفقا
كتاب واحد يخرج به للناس : « الديوان الشرقي للوُلف الغربي ».



الهجرة العظمى من مجيم الغرب إلى صنة الشرق

أوروبا في تلك الحقبة المضطربة على هذه الحال المضطربة  كانت
تزلزل تحت أقدام الجيوش من سائر الأجناس ،
ويصطبغ أديمها بدماء الآلاف من القتلى والجرحى ، ويمزق
فضاءها قصف المدافع ، ويطبق على آفاقها مثل نار الجحيم
ودخانها .

من هذا الجحيم المضطرم في الغرب أزمع الشاعر الهجرة .
لقد ترك «ويمار» إلى الجنوب الشمس المشرق تارة في «بوهيميا»
وفي منطقة حوض الرين الجنوبي تارة أخرى . وزاد عكوفه
على قراءة كتب الرحلات إلى الشرق ومطالعتة للشعر الشرقى
وخاصة شعر حافظ الشيرازى .

أما اليوم وقد غامت أوروبا واكفهرت سماؤها وادهمت
آفاقها بالأسحب المتوعدة تقصف رواعدها وتهاوى صواعقها ،
فقد زاد إقباله بكل جوارحه وقوى نفسه وخياله على الشرق حتى
أظله واشتمله ، وأحاط به واحتواه ، وصار له موطناً وبيتاً .

لأنه اليوم يحس من نفسه كأنه ابن الشرق من فرعه إلى أخمص
قدمه ، رافلا في الجبة الفضفاضة ، متوجاً بالعمامة ، الفخمة ، متمشياً
مشيته الحاملة في فضاء ساحر مشرق ، بين التخييل بمشوقة الشطاط ،
على ضفتي دجلة والفرات ، ينطق بالحكمة وينشد الأشعار ، بل هو
بعبارة أصح كأنه شيخه الفارسي حافظ الشيرازي بذاته وسمته
وفي مقامه الأثير من جنات المصلى ونهر ركناباد ، غافل إلا عن
نفسه ، مستغرق في إحساسه وحسه ، نشوان يترنم بمنظوم الغزل .
وهكذا طابت لشاعر الغرب هجرته الروحية العظمى إلى
الشرق . وما هوذا يتغنى بنشيد « الهجرة » ،

« الشمال والغرب والجنوب ؛ أقطارها تتناثر بددا ، وعروشها
وبالكها تنهار . فهاجر وامنض إلى الشرقي الطهور تستروح الطيب
من الآباء الأوائل الطيبين ، وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك
« الخضر » ، القائم على عين الحياة ريعان صباك .

« هناك في ظل النقاء والصدق تطيب لي الرُّجعى إلى نشأة
الإنسانية الأولى ، إلى الأزمان التي تلت فيها بنو الإنسان كلية الحق
منزلة من الله بلسان أهل الأرض ، فلم يقدحوا فكراً ولم يكدوا
ذهناً . إلى تلك الأزمان التي كانوا فيها يبجلون السلف ، وينهون
عن كل دين غير دينهم .

« أريد التلى من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود :
إيمان واسع وفكر قانع لهما من الشأن مالا لكلمة فإنها كلمة منزلة .
« أريد معاشرة الرعاة فى المنتجعات ، والاسترواح فى ظلال
الواحات والارتجال مع القوافل متجرا فى الشيلان والبن والمسك ،
طارقاً كل درب من البوادرى إلى الحضر ،

« وسيدان أنجدت أو أتهمت ، فإن أغانيك يا حافظ تؤنسنى
فى وعشاء السفر ، إذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذاً
طرباً وكأنا يوقظ بها النجوم الوسنى ويرهب قطاع الطريق .
« هناك فى الشرق فى ردهات حماماته وبين جدران حاناته ،
أريد أن أذكرك يا مولاي حافظ وقد رفعت حبيبتى خمارها ،
وتضوع الطيب من غداثرها المهدلة المضطخنة بالعنبر .

« وليعلم الذين ينفسون على الشاعر هذه النعمة والذين تطويع لهم
نفوسهم تنخيصها ، أن كلمات الشاعر لا تبرح حائمة حول بجنة الخلد
طارقة فى لطف أبوابها تطلب الخلود ،

« وإذن فقد انصرف خيال دجوته ، بكليته إلى دنيا الشرق الساحر
كما تمثله من مطالعاته ، وبخاصة فى شعر حافظ فهو منه فى جو تشيع
فيه اللذة وتشب ألوان الحياة . إنه جو تلتطف حواشى نهاره بأنداء
النوافير الفوارة ، وتردد فى ليا ليه المقمرة أصدااء المعازف وتلاحين

القيان ، وفي المقاصير من قصوره تتخايل الجوارى في برود الخز
الفاخرة ومطارف الوشي الخسرواني ، ويخطف الأبصار سنا
الجواهر وبريق الحلي ، وتفعم الحواس مجامر البخور وسطحات
المسك وعبير الورد .

ولقد ملك هذا السحر على الشاعر لبه ، وحق له أن يملكه .
ولكن المغلوب على أمره لا قدرة له ولا خير يرجى منه . وما من
سبيل للشاعر إلى الغلبة إلا أن يملك هو السحر بدوره ، ويقوى
عليه فيقيده بالعباراة ويخضعه للفظ .

وها هو ذا شاعرنا يعالج الغلبة ، وقد واثته بعض منظومات
في شتى الأغراض بما استوحى وحيه من الأدب الفارسي . ولكنه
كدأبه لا ينشط الإنتاج الأدبي نشاطه العجيب إلا أن يساعفه الحب
ويخفف إلى نجدته . فإنه على كل طاقته وبأسه ، لا يستطيع شيئاً بغير
هذا السند . فليس هو بصاحب السلطان على ملكاته ، فقد ترين عليه فترات
من الخلود يطول أمدھا أحياناً حتى لتحسب أن الفنان فيها نضب
معينه وصوِّح رايحه . ثم على حين غرة تدر أفاريقه وتزدهر
أفانيته تحت تأثير حب جديد شديد . ولذلك تتوافى أبداً فوارات
عبقريته على موعد من مواقف غرامه وعهود محبته .

واليوم هو في الشرق يتغنى الشباب فيه والشيوخ بأحاديث العشق

وتتردد على ألسنتهم أسماء أزواج من العشاق أصبحوا على صدق
الهوى أعلاماً مرفوعة وأمثالا مضروبة تسير بذكرهم الركبان
وتستفيض أخبارهم في كل أفق وفي كل زمان : المجنون وليلي -
جميل وبثينة - خسرو وشيرين - سليمان وملكة سبأ فاتنته
السمراء - يوسف وزليخا .
فمن له هو الآخر بشطره المكمل وإلفه؟ أين تكون زليخاه؟ .



في طلب النور والحب

شهر يوليو من عام ١٨١٤ ارتحل جوته من د و يمار،
شاخصا إلى الجنوب في طلب الشمس والدفء والنور،
يحدد بها شبابه ويحلم في أحضانها بالحب. وكانت وجهته د ويزبادن
Wiesbaden، مدينة العيون الحارة الطبيعية، وقد طالعه في صبيحة
يوم هجرته « قوس قزح »، صاحب غارق في غمرات الضباب،
فشام فيه المهاجر بشارة الرجاء والسعادة المقبلة، فنظم في تحيته
المقطوعة الآتية :

« حين اقترن إله الشمس بالسحابة الريانية، تولد في الحال قوس
ملون بشتى الألوان. وإني الساعة ناظر مثل هذا القوس مرتسما
في الضباب، وهو في رأي العين أبيض فضي اللون، ولكنه مع هذا
قوس الغمام يتمثل فيه قوس الغرام وسهامه .
كذلك أنت أيها الأشيب الصحيح البنية الشديد العنقوان .
لا عليك إن شاب مفرقك، فإن العشق لا يزال من قسمتك،
وكان قد مضت عليه سنوات عدة لم يعاود فيها هذه الأكناف
من دفرانكفورت، مسقط رأسه ومدرج صباه، فطالعتة - بعد مروج
و يمار الهزيلة - ضفاف نهري «الرين» و «المين» شائقة رائعة تنعكس

على عبايها عرائش الكرم ومناظر القرى وأبراج الأجراس :
« ما هذا الذي يترأى هنالك مبرقشاً منمنماً وكأنما يصل
الربى بالسماء ؟ إن هبوة البكور ترين على الأفق وتغشى على نظرى :
أتراها خيام الوزير أقامها لجواريه الحبيبات ؟ أم هى الطنافس
الخسروانية الممدودة احتفالاً بمهرجان عرسه ؟ ليس فى العيان
أجمل منها يا حافظ ، أترى بلدتك شيراز أقبلت بكل ما وصفت
من ورودها إلى سهول بلادنا القائمة المدججة ؟ بل هى أزاهيرنا
تلبدى جميعاً كأنما تتحدى إله الحرب .

« لا برح العقلاء يغرسون الرياحين لخير الخلق ، ولا برحت
الرياحين فى شعاع الشمس متألقة تألقها اليوم فى طريق ،
وكانت الكائنات فى طريقه مدوية بأصداء الرنين متجاوبة
بصلوات الحمد احتفالاً بأعياد تحرير ألمانيا ، وقد حفلت المحارب
بجموع الأهلين المتوافدين من كل صوب فى أبواب الأعياد القشبية
وفى جو الجنوب حيث الرياح الدفئة السافية محملة بالتراب ،
ذكر «جوته» شيخه حافظ وحن إلى الحب الأرضى :

« التراب عنصر من العناصر أنت بارع التصرف فيه يا حافظ
كلما نظمت النسيب فى معشوقتك . فالتراب على أعتاب دارها
أحب إليك من الطنافس المنقوشة بوشى الذهب يتربع عليها ندمان

الشاه أبي اسحق محمود . وإذا الريح السافية حملت من لدى بابها حفنة
من تراب فإنها لأطيب عرفاً عندك من المسك وعطر الورد .
« يا للتراب ! لقد طال حرمانى منه فى ربوع الشمال الملتحفة
أبد الدهر بالضباب . أما هنا فى الجنوب الدفىء فانى ملاقيه موفوراً .
غير أن أبواب الحب لما تزل موصدة دونى ، قابضة فى مدارها
لا صرير لها .

« إلا أيتها الرياح السوافى . أغيشنى بغيثك ، دعينى أسوف
رائحة الأرض الندية . ولا بأس بالرعود كلها ترعد ، وبالسما
تتجاوب أقطارها بالبرق ، فإن البغيث المنهمر لها يبط بهذا الغبار
المثار على وجه الأرض طينة مخضلة ، وسرعان ما تنبعث الحياة
ويشع روح من التخمر خفية السر مباركة الأثر . فإذا كل شىء
فى كل ناحية ينتعش ويترعز ، وإذا كل شىء ينحضر وينضر .
واشتد بالشاعر هذا الشوق إلى التجدد . لقد كان من قبل
فى طوره اليونانى يرى الصورة المفرغة والكيان المجبول أبلغ مافى
الوجود . أما اليوم فانه يرى التحيز فى مكان بعينه معناه الجمود
فلا بد للحى من المات لتجدد له الحياة ، ولكى ينبعث أصفى جوهرأ
وأغنى عنصراً . وما الحياة إلا تطور من حال إلى حال ، سواء
فى ذلك حياة الحشرة فى الثرى أو الأجرام فى أجواز الفضاء .

ولقد قرأ في ديوان حافظ أبياتاً من غزله يتغنى فيها بشوق
الفراشة إلى اللهب وراحته في الاحتراق به . فخرج منها بمعنى
غير شوق المتصوفة إلى الفناء ، لأن صاحبنا حاضر الحس لا يشبع
من البقاء على ظهر هذه الغبراء . وهو القائل في رسالة له إلى
صديق : « يقيني أتى كنت حياً مثلاً تراني اليوم ألف مرة قبل
هذه المرة ، ولعل عائد إلى الحياة ألف مرة أخرى بعد هذه
المرة ، فشوقه إنما هو إلى التجدد الخافل المستمر . وهذا ما يحش
الساعة بنفسه ، أليس هو اليوم غيره بالأمس ؟ ألم يمت جوته
اليوناني طاوياً حقة حياة تنيف على خمس وعشرين سنة كانت
وقفاً على عبادة المشال الأغرقي . وهل يشوقه اليوم إلا أن
يحترق كالفراشة في لهب عشق جديد ليتم له في سمته الشرق انبعاث
جديد ؟ إنه ليشرح هذا « الحنين السعيد » في مقطوعة من
أورع الشعر : «

« لا تتحدث بهذا لغير عاقل حكيم ؛ فإن عامة الناس على
السخر والاستهزاء مطبوعون !

ما أسعد الحى يطلب المنية في اللهب !

« في ليالي الحب الندية التي أنت فيها تتلقى الحياة وتبذل الحياة
تستحوذ عليك عاطفة غريبة ؛ إذ يسطع سنا السراج الساجي

فلا تطيق بعدها البقاء في الظلمة ويستدرجك شوق جديد إلى
قران أسى وأعلى . ولا يقعدك المدى ، بل تخف مبادراً مفتوناً
فاذا أنت يا عاشق النور ، يا صنو الفراشة ، ذائب محترق .

« مت وتحول خلقاً جديداً . فانك - ما جهلت هذا - باق
على ظهر الأرض المظلمة ذلك الضيف السكتيب الحزين ،

ولقد قدر لشاعرنا أن يستعيد شبابه ويتحول إلى خلق جديد
حين لقي « زليخاء » في الرابع من أغسطس عام ١٨١٤ في صحبة

رجل المال « فون فيلر Gohann Gakob von Villemmer »
وكان قد سمع بوجود الشاعر الكهل للمرة الأولى بعد عشرين عاماً

في وادي الرين يلتبس الاستجمام والراحة في مدينة المياه « ويزبادن » ،
فذهب مع الفتاة إلى لقياء ، فراقته الفتاة . فلما رد الزيارة أخذ قلبه

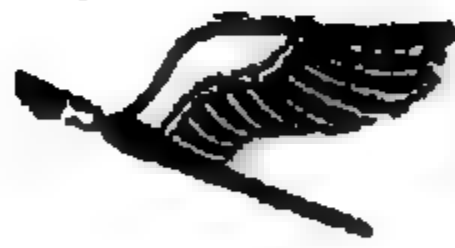
يعلق بها ويزداد مع الأيام ميلاً لها ، لما كانت عليه من التذوق
للشعر وعلى الأخص شعره ، فضلاً عن حذقها للموسيقى والغناء .

وهذه الفتاة هي « الأنسة مريان يونج Marianne Yung » التي
أصبحت فيما بعد « السيدة مريان فون فيلر » .

ولقد بلغ حب الشاعر أوجّه عام ١٨١٥ فنظم فيها مجموعة
من المقطوعات . وهذه المقطوعات تمتاز على أمثالها من شعر

الديوان بما يعتلج فيها من عاطفة شخصية اضطربت نارها بقلب

الشاعر فجعلتها أشد تأججاً وتوهجاً ، كما اضطربت مثل هذه النار
بقلب « مريان » فجعلت من هذه القارئة الجميلة شاعرة أجابت
على بعض مقطوعات الشاعر الكبير بمقطوعات مثلها في طبقتها
وفي قوتها وبلاغتها . وقد اختار الشاعر لمعشوقته الاسم الشرقى
المشهور « زليخا » ولكنه أبى أن يتسمى « يوسف » ابتعاداً
عن دعوى الشباب والحسن ، وآثر أن يتخذ اسم « حاتم » مثال
السباحة والجود عند العرب ، إشارة إلى أن الشاعر قد وهب قلبه
للحب . وقد أفرد « جوته » لهذه المقطوعات جميعها جزءاً أضافه
إلى الديوان باسم « كتاب زليخا » وجعل موضعه بين الأجزاء
الأخرى موضع القلب من الديوان .



الديوان الشرقي للمؤلف الغربي

« جوته » إهداء ديوانه الذي أسماه « الديوان الشرقي
للمؤلف الغربي » تحية شعرية كتبها بالألمانية لتكون
على دقة الكتاب اليسرى ، ومترجمة للغة العربية على الصورة التي
وضعها المستشرق « سلفستر دي ساسي » لتكون على دقة الكتاب
ليمنى ، وهذا نص التحية باللغة العربية .

يا أيها الكتاب

سر إلى سيدنا الأعز

فسلم عليه بهذه الورقة

التي هي أول الكتاب وآخره :

يعنى أوله في الشرق

وآخره في الغرب

والمطلع على الديوان الشرقي الغربي يستطيع أن يصور
نفسه شيخوخة ناظمه « جوته » أصدق التصوير ، وهو يتطلع إلى
لشمس دالفة نحو الغروب في أروع مجاليها ، تنشر على الأفق
لغربي في دلوها ضياء شمسانياً ليس لجلاله مثيل ، وكأنه منها
بمقام كلمة الوداع الأخير قبل أن تغيب غياها في جوف الدياجير .

وإذا كانت في هذه الساعة تشتبك الظلال وتستوى ، وتصطبغ
الاشياء جميعها بصباغ مشترك ويعمرها وهج شامل ، فلا غرو
أن نظم فيها مؤلفنا الغربي ديوانه الشرقى .
ولقد عالج دجوته ، أساليب النظم فى غزل حافظ الشيرازى ،
ولكنه لم يلتزم قيودها فى الوزن والقافية إلزاماً إلا فى القليل
فإنه لا يريد لها قناعاً خلافاً خارجياً ولا يرتضى من أجل العرض
التضحية بالجوهر .

وشأن الشيوخ من الفحول أحياناً قلة الاحتفال بالنسق
وعدم الصبر على التقيد بالقالب . وما حاجة دجوته ، إلى القالب
الظاهر ، وقد أصبحت شخصيته الكبيرة الفنية لأشعاره وكتابات
حسبها من طابع مبین وقالب صمیم . ثم أنه وإن قصر عن الشعراء
« روكرت Ruckert » و « فون بلاتن Von Platen » فى احتدائها
لتوائى حافظ وقنونه فى القريض كما تشهد منظوماتها فى ديوان
« الغزل » و « ورود الشرق » فإنه لأصدق وأعقق منها تعبيراً
عن حياة الشرق نفسها ، حياته الجديدة غير المحدودة . ولقد تناولها
شاعرنا منطلقة جارية كماء الفرات فاستحالت فى كفه الصناع
صورة مفرغة من البلور تشع بألوان الموشور .
ويصطنع جوته فى معظم ديوانه أوزاناً أشبه بالأراجيز

يصب فيها عباب حياته العريضة الزاخرة فإذا الديوان معتلج
بالحركة الطليقة متجاوب بأصوات الخليقة . وإذا نواحيه عامرة
بالإشارات تغلب فيها - على عادة الشرق - لغة الاستعارات ،
وإذا الشوارد الغريبة والتواليد الجريئة والتضمين والإطناب ،
وإذا الكلام المرسل في جوار اللحن المنغم ، والسلاسة المأنوسة بين
قيود الوصف المحكم . فلقد تم لشاعرنا في هذا العمر اجتياب
عالم الصور بأسره ، واستيعاب معانيها كافة . وراق ما كان في قرارة
وعيه كدراً ، وخلص ما كان في نفسه مكبوتاً . فله اليوم أن يغيب
ويظهر فيما شاء من الصور ، دون أن يخشى الضياع على نفسه .
وفي قدرته اليوم التعبير عن شيخوخته بحمية الشباب وأساليبه
وعياراته . ولأنه يرى في رمز الأفعوان الملتف مثلاً للسعادة
على مدى الأيام : « أيتنى المرء خيراً من أن يتها له عقد
أوله بأخره ؟ »

وميزة جوته في مشرقياته أنها ليست مجرد تهلل وفورة
عاطفية واستسلام إلى لون متقد من الصوفية لا عهد للغربيين به ؛
بل إن شاعرنا ليجمع إلى الاستمتاع الخيالي صحة الملاحظة وصدق
النظرة ، ويقرن إلى التأثير النفساني سلامة التأمل الموضوعي .
ويصذر عن إحاطة بالمادة التاريخية وعلم بما تقي الأمور ويجري

الأحوال وسير التطور وحسن تقدير اعتبارات الزمان والمكان .
واقدر توفر جوته بعد أن استقر في دويمار، مرة أخرى على
مراجعة هذه الأشعار وكانت مرتبة على حروف الهجاء فقسمها
على حسب الموضوعات إلى اثني عشر سرفراً ، وهذه هي بأسمائها
الشرقية على الترتيب :

كتاب المغنى . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب
التفكير . كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور .
كتاب زليخا . كتاب الساقى . كتاب المثل . كتاب الفرس .
كتاب الخلد .

ويزعم جوته أنه بطبع هذا الديوان على اعتباره نسخة
خاصة لا اطلاع الأخوان ، لا بوصفه كتاباً كاملاً من جميع الوجوه .
وليس في ذلك على كل حال ما يدعو للعجب ، فإتينا لو أمعنا الفكر
لألفينا أن كل كتاب إنما يكتبه مؤلفه من أجل مريديه
وأنصاره والمعجبين به . ويعتذر «جوته» عن تهجيله في طبع الديوان
إلى تقديم سنه . فلو أنه كان أقرب إلى الشبية لاستبقاه في قطره
أمدأ طويلاً كمعاداته قيد التعديل والتنقيح ، كما أنه يؤثر أن
يتولى في حياته إخراجَه بنفسه على أن يترك جمعه لمن بعده
كما فعل حافظ ؛ لأن نشر مطويه ومثوله مطبوعاً نصب عينيه

أحضر له على تقليب النظر فيه كل حين لتوفيقه حقه من الكمال .
ونحن فيما يلي نعرض لبعض أسفار الديوان بالتعريف
والاختيار بقدر ما يسمح به المقام .

كتاب المغنى

يتغنى الشاعر فى هذا الكتاب بمظاهر الحياة الشرقية
كما وقعت فى نفسه ولقد كان يود أن يضيف إليه أشعاراً فى المديح
عرفاناً لفضل أوليائه وتحية لأخصائه ؛ ليكون فى ذلك رضى
للأحياء منهم وإعلاء لذكر الراحلين . وهو يلاحظ على شعر
المديح فى الشرق أنه بما لا يستطاب فى الغرب لذهابه مذهب الغلواء
وكيله الجراف للثناء . والقصيد الحر الصادق الشعور هو القمين
وحده بأن يحلو مناقب الممدوحين من العظماء الذين تخلد لهم
آثارهم ويزداد على الزمن إكبارهم ولا ينقضى ديننا لهم .
ويقول دجوته ، إنه أدى بعض هذا الدين على النسق الذى اختاره
من مديح سبق نشره على الناس ونحن نجتزئ من سفر المغنى
- وهو السفر الأول من الديوان - بالمقطوعة الآتية :

« إذا ما عزف إله العشق اللعوب عن يسارى بمزمارة الشجى
الطروب على حافة جدول سلسال ، وعن يمينى نفخ إله الحرب

في بوقه الصاخب الرنان في حومة الميدان ، فإن السمع لا شك
منصرف عنه إلى الناحية الأخرى .

ولكن الصخب يحرم السمع بهجة الطرب . فإذا استمر
النغم الرخيم مرفوع العقيرة مسموع الرنين وسط الوغى القاصف
الصاخب فإنني لأسخط عندها وأتقم ، وإن عظمي ليشث عندها
ويشرد . فهل على في ذلك من جناح ؟ وإذا تزايد تطريب الناي
وضجيج البوق معاً فنسيت نفسي وخرجت من الحلق عن طوري .
فقيم عجب العاجبين ؟ ،

كتاب حافظ

لا يحب دجوته ، إطالة الكلام في أشعار حافظ لأنه يرى الخير
كل الخير لك في أن تحسها وتجربها في نفسك وتسترسل معها
دفعاً واحدة . فهي فيض من الحياة زلال سلسال لا ينضب
معينه . وحافظ حكيم طروب يأخذ في أثناء الطريق نصيبه
من الحياة الدنيا ، ويلقي نظرة من بعيد على الأسرار الربانية
العليا . وإذا كان يزهد في الملذات الغليظة الحسية فإنه كذلك ليغفل
عن الفرائض الدينية . ثم إن شعره مع ما يبدو فيه من ترغيب
وهداية دائم الاختلاج بحركة شكوكية .

وقد استهل ، دجوته ، كتاب حافظ بهذا الشعار «هلم نسّم اللفظة

العروس . ونسم المعنى العريس . لقد شهد هذا الزفاف من
قرأ لحافظ شعره .

وهذه بعض مختارات من الكتاب :

لقب حافظ :

الشاعر « جوته » — قل يا محمد شمس الدين . ما بال قومك
الأكرامين يدعونك حافظاً ؟

حافظ : أحبيك تحية التعميم . وجواباً على سؤالك أقول : إن
ذلك لحفظي القرآن الكريم عن ظهر قلب . واستيعابي
ذخره المصون عن التبديل والتحريف في خزانة صدري .
ولقد حماني كل مكروه ، كما حمى جميع الذين يعلمون علم
اليقين ما أنزل على النبي من القول المبين . ذلك هو السر
في تسميتي حافظاً .

الشاعر : أما والأمر ما تقول يا حافظ ، فأراني حرياً بمشاركتك
في لقبك . والمرء إذ يفكر تفكير غيره يصبح لا نحالة
مثله ، فأنا شبيهك حق الشبه . لأنني قد طبعت في ذهني
كتبنا المقدسة بنصها وحرفها كما انطبعت أسارير السيد
المسيح على صفحة المنديل الذي مسحت إحدى الصالحات
به وجهه في طريق جلجله . ولأتى على الرغم بما يداخني

أحيانا من التشكك والمعارضة والتجريد لواجب في ظلمة
الإيمان الساجية أنسا وراحة .

نهاية ولا بداية :

و أنت لا تؤذن بانتهاء ، وهذه عظمتك . ولا عهد لك
بابتداء ، وهذه قسمتك . وإنما شعرك يدور على نفسه كالغلك
الدوار ، سيان البداية والنهاية ، والذي يرد في الوسط وارد
بأجلى بيان فيما هو لاحق وفيما هو سابق . إنك المعين الشعري
للبلذات ، وعندك تصدر فيضا في إثو فيض لا ينتهي مداه : فم
لا يبرح نزوعاً للتقبيل ، ونشيدٌ صادق بالحب منسجم كالسلسيل ،
وحنجرةٌ ملتحاة على الدوام عطشاً إلى الشراب ، وقلب طيب
العنصر متفتح للبت والنجوى . عفاءً على الدنيا غيرك . فأنت
يا حافظ وحدك دون العالمين من أشتى معارضته . ولكم من
المسرات والتباريح نحن فيها شريكان ، بل أخوان توأمان .
ألا فليكن الحب والشراب لي مثلما كانا لك ، مطمح الهمة ومطلب
الحياة . ويا أناشيدى ! رجى أنعامك متقدة بحر ضرامك .
فإنك اليوم لأعرق قدماً ، وأقشب جدّة .

مخاطبة :

« إني لأرجو أن أوفق إلى أسلوب نظمك . وما أخرى
توجيع القافية أن يطربني مثلاً أطربك . وليس لقافية أن تتكرر
بعينها إلا إذا أفادت معنى مغايراً كما صنعت فأجدت ، أيها الشاعر
الذي أوتى ما لم يؤته أحد من الأوائل والأواخر .

« وما من شك في أن القوافي تعجب وتطرب . ويلد اصحاب
القريحة التفنن فيها . ولكن الطبع يمجها أن كانت قناعاً معروضاً
فحسب ، ليس وراءها جسد ولا روح . ولن تجد الفكرة لذاتها
فتنة إلا إذا استحدثت قلباً جديداً واطرحت الخادم الجامد القديم ،

كتاب العشق

يستحضر الشاعر في هذا الكتاب عشاق الشرق من ظلمات
الماضي . وينوء بهتظيم الخلق كافة للحب ، حتى ليزكروا على الدهر
أسماء المحبين ، كما تذكر أسماء الخالدين .

« أجل ، الحب فضيلة عظمى . ولن تجد نعمة هي أنفس منه .
لأنه لا يهب الجاه ولا الثراء ، ولكنه يجعل صاحبه صنو الأبطال
العظماء . وكما يتحدث الخلق عن النبي فإنهم كذلك ليتحدثون
عن وامي وعذراء . بل هم لا يتحدثون عنهما ، وإنما حسبهم أن

يذكر وهما إن إسميهما على كل لسان . أما وقائعهما ، وأما حقيقة
أمرهما ، فليس لأحد بها علم . لقد أحب أحدهما الآخر وهذا كل
ما نعرف وفيه الكفاية .

والكتاب يصف ما يتملأه العاشق من سعادة في سويحات
القرب ، وما يعاني بعدها من حرقة الفراق ومرارة الحرمان في
قصائد عديدة موسومة كلها بطابع الشرق وأخيلته :

كتاب مطالعة

سفر ما أعجبه بين الأسفار ، ذلك سفر العشق . لقد أمتعني
في مطالعته . بضع صفحات من اللذة وأبواب مستفيضة في الألم .
اختص الفراق بجزء كامل . واقتصر اللقاء على فصل وجيز ، على
مقطوعة . وللأشجان مجلدات مذيبة بحواشي لاحصر لها ولا آخر .

أسير

هنا الطرف الأدعج والشعر الأحرى اللذان حظيت منهما
باللحاظ والقبل : قوام سبط واعطاف بضعة لينة كأنما جعلت
للمتعة في جنة النعيم .

أكانت هنا حقاً ؟ وأين مضت ؟ أجل هي بعينها التي جادت
بهذا كله . هي التي سمحت بالوصال وولت هاربة . لقد تيممتني
وتركتني ما حييت أسيرها .

سوم :

واماً ! ما كان أسعدنى ! . . . كنت أتمشى خلال الحقول
فإذا الهدهد يطفر فى طريقى . وكانت بغيتى التفتيش هنا وهناك
بين الأحجار عن ودعات متحجرات بما تخلف عن البحر القديم ،
فاعترضنى الهدهد فى اختيال ناشرأ تاجه متبخترأ فى هيئة المدلّ
الساخر ، وإنه لسخر الحى بالميت . فقلت له : د يا هدهد ! فى الحق
إنك لطائر جميل . انطلق يا هدهد ! وبلغ حبيبتى أنى لها وملك
يمينا ما حيت . وكذلك كنت من قبل رسول الحب بين سليمان
وملكه سبأ .

فقال الهدهد : د إن النى أنت موفدى لها قد أودعتنى كامل
سرهما ، فى نظرة واحدة من ناعس طرفها . وأنا لا زلت كما كنت
أغبطك دواماً على سعادتك . فأحبيب وأحبيب فإنه مكتوب لك
فى الطالع دوام الحب الزاهر بقية أيامك مقترنا بالقوى الخالدة .
واتتحنى الهدهد إلى نخلة فاتخذ له عشاً بين شماريخها يرمى هنا
وهناك بالحافظ . ما أبدعه ! إنه أبدا يرعانا .

كتاب الساقى

لا يمكن أن يخلو ديوان شرقى من ذكر المدام والساقى الغلام . ويقول «جوته» إنه بمقتضى أدب العصر يتناول هذا الغرض الأخير بمنتهى الطهر . ويقدم إلى ذلك بأن الميل المتبادل بين الشباب والكبر هو على أصح معانيه علاقة تهذيبية بين معلم ومتعلم . وتعلق الفتى بمن يكبره سنّاً ليس بالظاهرة النادرة ولكن النادر هو حسن الالتفات إلى الاستفادة منه وليس أدل على ذلك من مراقبة العلاقة بين الحفيد والجد ، ففي هذه العلاقة تنمو ذهنية الأطفال حق النماء ، ولأن مهمهم يكون منصرفاً إلى الشيخ المحبوب يرعون وقاره ويطيعون كلمته ويعون ما استطاعوا وعيه من خبرته . ومالنا نقصر الكلام عن سن الطفولة وهذى سائر النفوس المطبوعة على الطهر تأنس من نفسها في كل أطوارها حاجة إلى هذه العلاقة القائمة على التقدير والأجلال . ولئن كان الصبي يستغل أحياناً عطف الشيخ لإدراك رغائبه الصبيانية وإشباع بدواته البريئة إلا أن اصطناعه التلطف والمراضاة يحمل على التساهل والإغضاء . وليس الشيخ بأقل سعادة بهذه العلاقة ، فإنه ليطر به ويتصباها أن يرى الفتى الغض

الطموح مأخوذاً بالعجب والإعجاب برجاجة عقله وحكمة سنه
في حين تنبثق شعاعة من هذا العقل في النفس الناشئة الذكية،
وإلى القارئ بعض المقتطفات من كتاب الساقى :

فلنكن سكارى جميعاً . فالشباب سكر بلا خمر ، والشيوخ
يستدركون الشباب بفضل الشراب . ولا غرو فالحياة المسكينة معذبة
بالهم ، وليس يطرد الهم مثل السكر .

الخمر محرمة بلا ريب ، فإذا كان لابد من شربها فلا تشربها
إلا صرفاً ، فإنك إن عاقرتها بمذوقة كنت مضاعف الإثم .

أقول غير مبالغ في القول : من كان منكم غير قادر على الشرب
فليس يصح له حب . كذلك أتم أيها الندامى لستم أحسن حالاً ،
فمن كان منكم غير قادر على الحب فليس يصح له شرب .

تعال أيها الغلام ، يا رمز الشباب ! . لماذا تلزم الباب ؟
كن من اليوم نديماً تكن الخمر كلها رحيقاً .

يا لك من خبيث صغير ! أبق من الخمر على رشدى . وهذا
هو المهم عندي ، لنكى آنس بقربك أيها النديم الخبيث على الرغم
من سكرى .

اليوم في البكور قامت في الحانة جلبة يالها من جلبة ، صاحب
الحان والقيان والمشاعل والزحام ، وكم من لجاج بينهم وخصام ،

والنأى يعرف والطبل يقرع . عربية ما أفضعها عربية . فدخلت
مع الناس في هذه الغمرة من الحب والغبطة . إن الخلق لينعمون
على الاستهتار وخلع العذار ، ولكننى مبتعد فى حزم وسلام عن
مجادلة فقهاء المكاتب ووعاظ المنابر .

يدعونك الشاعر العظيم كلما طلعت فى الأسواق . وإنى لشديد
الإصغاء حين تنشد ، وإنى لأشد إصغاء لك حين تصمت ، ولكنى
أحبك أعمق ما أحبك حين تقبلى قبلة التذكار . فإن الكلام
يذهب . أما القبلة فباقية فى صميم الفؤاد . ولئن كان لنظم القوافى
قدرها الكبير ، فإن خيرا منها إطالة التفكير . فأنشده القوم فنونا
من النظم ، واصمت صمتك البليغ مع النديم .

كتاب الفرس

فى هذا الكتاب يذكر «جوته» دين المجوس ، ويرى أن عبادة
الشمس والنار مهمما تكن معنوية ، فإنها عند أهلها عملية جد
عملية . ولا غرابة فى أن يتحمس «جوته» لتعاليم من يعبدون الله
فى مظاهر قدرته ، فى الشمس والنار والهواء والماء وفى خصب
الأرض وحياة النبات . فإن هذا التأليه للطبيعة يتفق وإحساسه
العميق بها حتى لينطق به كل سطر من «وصية المجوسى الأخيرة» ،

يزجها لأخوانه في الدين وهو من الحياة في ذروة القمة المغمور
بالنور الأزلى .

« إذا الشمس فوق أجنحة الفجر شع نورها . واستعل
قرصها الوهاج فوق الذرى ، فمن ذا الذى لا يرفع إليها البصر
خاشعاً ؟ لكم أحسست في حياتي المديدة مراراً لا تحصى لدى
شروقها ، أنتى عارج إليها لكى أشهد الرحمن على عرشه ، وأسبح
باسمه ، سبحانه مصدر الوجود ورب العالمين ، ولكى أسلك
الصراط المستقيم صراط الذين هم أهل لهذا المشهد العظيم ، ولكى
أهتدى أبد الدهر بنوره العميم . وبعد ، فهذه وصيتي المباركة
أودعها صدور إخواني وأكلها إلى صدق عزائمهم :
« عليكم القيام بفرائض الحياة الشاقة كل يوم . وما بكم حاجة
بعدها إلى الجدال فيما ليس لكم به علم ، .
ويل هذا تفصيل الفرائض ، وكلها ناطق بعبادة بجوته للحياة
وتقديسه الجهاد فيها .

كتاب تيمور

يرى دجوته ، أن كتاباً كهذا كان من حقه أن توضع دعائمه
بعد عامين كاملين من العكوف والتوفر على موضوعه حتى يتأتى
للشاعر مواجهة هذى الخطوب الجسام بما يتفق وزوعتها وتراعى

آفاقها . كما يحمل به تخفيفاً لفجعاتها من حين إلى حين أن يظهر
الأستاذ النديم نصر الدين جحا إلى جانب مولاه الطاغية المخرب
وما أكثر ما يروى الرواة من نوادره معه ، ويخص جوته بالذكر
هذه النادرة : « كان تيمور - كما هو معلوم مأثور - دميم الخلقة
أعور أعرج ، واتفق في ذات يوم والأستاذ نصر الدين بين يديه ،
أن أمر تيمور بالخلق ولما أتم الخلاق خلق رأسه عرض له
بالمرآة كالعادة . فلما رأى تيمور في المرآة قبحه أجش بالبكاء وإلى
جانبه بكى الأستاذ . وظل الإثنان يبكيان نحو ساعتين . وأقبل بعض
الخلائن فجعلوا يواسون تيمور ، ويسرون عنه بالحكايات حتى
نسى . وكف تيمور عن بكائه ، ولكن الأستاذ لم يكف بل
زادت عبراته انهماراً . فقال له تيمور : « وبعد ، لاني نظرت
في المرآة فرأيت فرط قبحي فخرنت وأنا صاحب الحول والطول
وخزائن المال والجواري الحسان أن أكون بهذا القبح . وأنت ،
ماذا يجعلك تبكي وتمضي في البكاء ؟ » .

فأجاب الأستاذ : « إنك صادفت وجهك في المرآة مرة فلم
تطق رؤيته وطفقت تبكي . فكيف بي أنا المقضى على برؤية
وجهك صباح مساء ! فإذا لم أبك فلن البكاء ؟ »
فضحك تيمور لقوله حتى استلقى على ظهره .

ومع أن الشاعر لم ينفسح له الأجل لتحقيق ما رسمه لنفسه ،
ورقف عند المقطوعتين اللتين نظمهما ولم يشتمل كتاب تيمور
على غيرهما إلا أنهما في الحق حسبه جلالاته وروعه :

الشتاء وتيمور

هذا الشتاء أنزل بهم البلاء . لقد تنفس بينهم
أنفاسه الباردة فثارت صرصرات عاتية ، وبعدها سلط عليهم زعازع
زمهريره وغواشي صقيعه . ثم انحدر حتى مجلس تيمور وأهاب به مرعداً
متوعداً . د على رسلك واتشد أيها الشقي ! أيها الطاغية الغشوم !
أو لم يكف القلوب ما اصطلت من عذابك واكتوت به من
نارك ؟ فإن تلك مارداً من الشياطين فأنا المارد الآخر . وإنك
شيخ تمرس بالسنين وتمرس به ، وإنني لكذلك . وأنت المريخ
وأنا زحل . وكلا الكوكبين شوم ، وفي اقترانهما إيذان بالويل
والثبور وعظائم الأمور . وأنت تهلك الأنفس وتخمد جذوتها ،
ولكن رياحى أقتل برداً بما تستطيع . وإن كانت عصابتك
الهمج قد سامت المؤمنين سوء النكال ، فقد كان ما كان ! وسترى
إذا آن الأوان يأذن الله شرّاً بما جرى . والله إنك لست لي
بكفء ، وهو على ما أقول شهيد . أجل ، والله سوف لا تغنى عنك
حرارة الوطيس المسجور وشواظ كانون شيئاً ، ولن يعصمك
عاصم من برد الموت .

قارورة العطر

لكي يتحبيب إليك المحب بالعطر العبق ويزيد في انشراحك
وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد العديد من أحكام
الورد . أجل ، إنه لكي يستقطر ملء قارورة صغيرة
تهدي إليك ، قارورة مخروطة مستدقة كسبط أناملك ، لا بد له
من عالم منها ، عالم من القوى الحية التي تتفق عنها الورد مؤذنة
بهيام البلبيل بها وترجيعة شجي أغانيه في حبها .
فهل ترانا نذكر هذه الآلام ، والعطر يفهم حسنا ويزيد
في متاعنا !

لكم هلكت أنفس لا عداد لها في سبيل عظمة تيمورا .

كتاب زليخا

حاتم : ديا للغدائر الخلافة التي تيمتني ا لقد أوقعتني شباكك
في أسر هذه الطلعة الأسيلة الجلواء ، وايس عندي أيتها
الافاعي السود المحببة ما يضارئك . ايس لي لا قلبي ، وهو كعبد
يتملا ويتفتح كالزهرة اليانعة . إنه تحت الثلج الأشهب ،
والدجن المخيم ، بركان مسجور يحيش بحبك . لقد علت
وجهي منك حمرة كما اصطيفت من الفجر مراقي الجبال
الوعرة . وآنس د حاتم ، مرة أخرى في نفسه نفحة
الربيع ووقدة الصيف ،

زليخا : والله لا أرضى لك التلف ، فان الحب يذكى الحب
ويؤكدده . فابق بصبابتك زينة لصباى . وما أشدنى
زهواً بمحبتك كلما سمعت إطراء الناس لعبقريتك .
فإنما الحب الحياة ، وعبقريته الذهن حياة الحياة ،

كتاب السخط

ليس فى طاقة الإنسان أن يكبت فورات غضبه ويكظم نوازى
تقمته . بل من الخير أن يحتال على تنفيسها ولا سيما إن كان حرج
صدره بحيث يكدر صفاء الخاطر ويعتاق الخيال عن تحليقه .
وأمر ما يعانى به الشعراء سوء التقدير ، فتراهم يقابلونه بالمغالاة
بأقذارهم ، والمفاخرة بمزاياهم . وليس بخاف أن الناس إذا ذكروا
العلماء فأول ما يحبون امتداحه فيهم التواضع ، ثم لا يفيضون فيما
عداه من المناقب والملكات . والتواضع أبداً حليف المصانعة
وضرب من التمليق مقصود به إلى إنامة الحسد أو الشعور
بالغضاظة بين فاضل ومفضول ، فهو فى الظاهر تسوية ، وفى الباطن
ترضية ، وكأنه اعتذار النابغ عن نبوغه . وما حسن المعاشرة
بين الناس إلا إنكار كل كبير لنفسه ، وفى هذا حكم على المجتمع
بالبطلان ، اللهم إلا إذا تأتت للكبير القدرة على أن يترضى

اعتزاز الغير بأنفسهم ليرتضوا منه اعتزازه بنفسه . ولقد كان شعراء الشرق يبسطون اللسان في مدوحهم بالهجاء كلها أخلفوا منهم الظن وخيبوا الرجاء ، أما شاعرنا فكان ذا حظوة عند الأمراء . وأما شكواه من سوء التقدير فمن الشعب وعليه يصب جام نقمته وسخطه .

البغض بالجملة

« إني لأحب البغض ولا غنى للفؤاد عن حبه ، وليس بي بغض شخص بعينه . فإذا كان لا بد لي من البغضاء فها أنذا على الأهبة ، أبغض أصنافاً من الناس بالجملة . »

اعتبارات سخيفة

« يعاب على المرء مدحه لنفسه . ولكن ، أليس فاعل الخير بالمادح نفسه بالخير الذي هو فاعله ! ثم أليس الخير - لولا التعمية في الكلام - هو الخير على كل حال وبالرغم من كل مقال ! أيها الحق ، ما دمتم تلتذون جنونكم ، فدعوا الحكيم الواثق بحكمه يلتذ الاستخفاف بتافه محامدكم وسخيف اعتباركم . »

مأثم في الكبر

ما بالكم أيها المشايخ الدجاجلة ، تدمون نفخة الكبر العاتية ؟

لو شاء الله لي أن أكون دودة لكان خلقتي دودة .

كبر الوضيع للرفيع

« كيف ألومهم ، وهذا لسان حالهم بقول : ليس في الإمكان أن نرفع رقيقاً دون أن نضع من أنفسنا . هل كنا نحيا لو تركنا غيرنا يحيا ؟ »

شاعر الكنود

« ما من سعيد هاني إلا بادره الجار بالتفخيص ؛ كذلك لم يعيش ذو الفضل حياته العاملة إلا كان هم الناس في رجه ، فإذا ما قضى نحبه جمعوا على الفور الهبات الوفيرة ليعقيموا التكريم هذا المكنود بهم تمثالا . ولو عقلوا وجه مصلحتهم لكان الأولى لهم أن يكتموا أمر المسكين ، ويدعوه في طوايا النسيان أبد الأبدين . »

الرناء

« فيم التشكى من الدناءة ، وإنها في الدنيا لذات الحول والطول . هي صاحبة الأمر في فعل الشر طلباً للمتفعة ، وهي المتصرفة في إجراء العدل كما شاء الهوى . أفتريد أيها الحاج المتنطس خروجا

على القضاء المحتوم ؟ ألا دع الأرض والإعصار ، فلا بد في الدنيا
من الدوار وتذرية الغبار ، .

التفكير والحكمة والمثل

ليست الحكمة وقفاً غل الشيخوخة . ولكن الحكيم
لا شك يزداد مع السن حكمة بما يجتمع له على تطاول الأيام
من المشاهدات والتجارب ينضم بعضها إلى البعض فيستوى بها
الجملة ، ويبلغ القمة . فإذا أضفنا إلى هذا ما هو معلوم مشهور عن
الألمان من أنه لا كاتب منهم إلا وهو بطبعه من طلاب الفلسفة
ونقاد الأخلاق ، لخلص لنا التقدير الصحيح لحكمة جوته كبير
أدبائهم وهو في السبعين من عمره الحافض المديد . فهذه الحكمة
التي تعرض لآفاق الفكر جميعها ، من فنون وعلوم وشعر وفقه
وفلسفة ، لا تنحصر في حين بعينه كالأزهار المجففة ، بل هي
الشجرة الفيئانة تمتد أغصانها ناضرة الريان وتفتح أزهارها
متعددة الألوان ، في كل صفحة من صفحاته وفي كل سفر من أسفاره
سواء أكان منظوماً أو منشوراً ، مبحثاً علمياً أو نقداً فنياً ،
قصصاً أو ترجمة لحياته أو مسرحية من عديد مسرحياته .
ودجوته ، مثال الحكيم : والذي يجعله أتم تمثيلاً للحكمة هو أنه أوتي

مالا يؤتاه الحكيم عادة من مختلف المواهب وشتى الدوافع النفسية .
وتقوم حكمة «جوته» على أنه لا ينفك يضم إلى نفسه ما تشعب ،
ويؤلف المتعارض من الميول والنزعات كما تلتقى أقطار الدائرة
في المركز . فليس هو من أهل المذهب المدرسى ولا المذهب
الإبداعي ، وإنما هو فيما وراء هذا وذاك . وليس هو بالمسيحي
ولا الوثني ولا غير ذلك من العقائد المحددة ، لأنه في المحل الأوسط
بينها جميعاً ، ونعني به الأقرب إلى المركز حيث لا تشعب ولا افتراق .
فهو يستوفر ويستكثر على الدوام من كل شيء . وكأنما عنده
سر يجعل القيم المتفاوتة ووجهات النظر المتضاربة تجتمع في عيشة
واحدة ، بل ينضاف بعضها إلى البعض فيحصل من تضافها
زيادة الكل . ولم يكن جوته في موقف سالب يترك الأشياء
تقبل عليه فحسب . بل كان فعالاً موجباً يسعى لها ويجذبها إليه
من شتى الآفاق مما كانت غريبة وسحيقة . والعجب العجيب أن نجد
فيه مجموع هذه الاشتات الهائلة كتلة متماسكة . وثمة عظمة «جوته»
الحكيم . وسيلس القارىء هذا الجمع العجيب مجلواً فيما اخترناه
له من هذه الكتب الثلاثة .

وهذه الكتب تصدر عن تجارب شاعرنا وحكمته بعد بلوغه
غاية السن . وهي حافلة بالهداية والعبرة . ولا شك في أن «جوته» أفاد

الكثير في هذا الباب من مطالعته لترجمة كتاب «العضات» ،
لفريد الدين العطار وكتاب «قابوس» ، فضلاً عن إلمامه بحكم لقمان
وبيدبا وغيرهما . ونحن نجتزئ بفقرة من كل سفر من أسفار
«جوته» الثلاث على سبيل المثال :

نزة الإحسان

ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمر بطرفها ،
ونظرة النديم تلمح عينه بالرضى ساعة يحتسى كأسه ،
وما أحلى تسليم السيد الأمر يشملك بعطفه ، وأحلى شعاع
الشمس في الخريف ينعشك بدفته . فليكن أحلى من هذه جميعاً
في نفسك تلك الرقة تمتد بها كف الفقير في طلب الصدقة ، وتتلقى
منك بالحمد الجزيل ما تجود به .

ما أحلاها وقتئذ نظرة ! وما أحلاها تحيصة ! وما
أحلاها بلاغة في السؤال . تأمل هذا فإذا أنت الكريم المحسن
على لدوام .

أيها البخيل ؟

دعوتى بالبخیل ، فهلا أعطيتى ما يمكن أن أجود به !

المؤمن الصابر

تحدرت من السماء إلى لجة الخضم قطرة مرتجفة . فأنحت
عليها الأمواج صفقاً وضرباً . ولكن الله جزاها عن صبر
إيمانها خيراً . فرهب لقطرة المطر قوة واعتصاماً فاختوتها
الصدقة في حرز حرز ، وأتم عليها العز والجزاء الأوفى فهي
اليوم على التاج درة تتألق في العلياء ساطعة اللبح منيرة البهاء .

كتاب الخلد

جزء المجاهدين الشهداء

ليثدب الأعداء قتلاهم ؛ فإنهم من الهالكين . أما الشهداء
من إخواننا ، فلا تندبهم فانهم أحياء في أعلى عليين .
لقد فتحت السموات السبع أبوابها لهم أجمعين . وهم أولاء
يقرعون أبواب الجنة يدخلونها بسلام آمنين . وقد أخذ منهم
العجب ، وغلبت عليهم نشوة الطرب ، إذ يجتلون من بحالي
الجمال والجلال ومطالع السنا والبهاء ، ما اكتحلت به عين
النبي في ليلة الإسراء ، إذ أله البراق إلى السماء ، وطاف به
السبع الطباق في لحظة خاطفة .

هناك ، في تلك الجنة الوارفة ، تسمو — جنباً إلى جنب
كأشجار السرو الباسقة — أشجار المعركة ، يعلو فروعها الفارعة
ثمر جنى من تفاحها الذهبي . وهناك أشجار الخلد فينانة كثيفة ،
تمد ظلالها على مفارش العشب المنمنمة الوشي ، وعلى منابت
الأزهار شتى الشيات مختلفة العطر .

وفي هذه الجنة ، جنة النعيم ، تقبل على أجنحة النسيم أسراب
الخور العين . فأنعم أيها المجاهد الشهيد بالنظر إليهن . وبالنظر
وحده ترتوى غلتك ، وتشبع شهوتك . وإنهن ليقبلن عليك ،
ويسألك عما أتيت من جلائل المساعي ، أو ما خضت من المعارك
الحامية الدامية المحفوفة بالمهالك . إن كونك بطلاً أمر مفروغ
منه مقطوع به عندهن ، وإلا ما كنت هنا بينهن . ولكن
أي الأبطال تكون ؟ ذلك ما ينشدن عرفانه . وسرعان
ما يعرفنه من جرحك ، الذي نقش على صدرك أثراً هو حسبك
تذكر فخار ، ووسام مجد وقلادة جدارة . إن المال فان ، والجاه
زائل ، ولا يبقى إلا طعنة كهذه لقيها المؤمن في سبيل الله .

وتذهب بك الخور العين إلى خمائل الكروم معروشة ،
ويمنن بك إلى قباب الزرابي مفروشة ، تدعما أساطين من حجارة
كريمة متألقة متألقة ، ذات ألوان متقلبة ، يموج بعضها في

بعض . لمنهن يدعونك في لطف وإيناس ، وقد رشفن رشفة
بطرف الشفة من الكأس ، إلى شراب أهل النعيم من عصير
كروم لا كالكروم ، ذلك هو الرحيق المختوم .

وأنت هنا مردود إلى عنقوان الشباب مجدداً لإهاب . وهن
أبكار أتراب جميعهن ، لا تفاضل في روعة الحسن ونضرة اللون
بينهن . فإن ضمنت إحداهن إلى صدرك فقد ضمنت سلطانة
عظيمة ، هي لك في مقصورتك نعم الخدينة . وحاشا أن تغتر
بالحسن ممن حسناء ، فيداخلها الصلف والخيلاء ، وحاشا أن
تطوى واحدة ممن صفحة البشر وتظهر الكمد لطارىء
من الغيرة أو لاعج الحسد . بل كل تحدثك عن محاسن غيرها
أصدق الحديث وأطيبه . ولا تصدك إن شئت عن مجالس
الآخرى ، بل يتسابقن جميعاً على السواء للقيام على خدمتك ،
وتهيئة ما فيه تمام مسرتك .

فأنت من الحور العين في جمع عظيم زاخر ، ثم أنت مع
ذلك في صفو من العيش ناعم البال والخاطر . وإنه لمطلب معجز
الدرك عزيز ، ومن حقه أن تطلب الجنة من أجله .

فأنعم بهذا الصفو الذي لا كفاء له ولا عوض منه ، بين
أسراب من الحور العين لا يضجرُ معاشرها ، وأكواب من الرحيق
المختوم لا يسكر معاقرها . نعم الصفو المقيم ، ونعمت جنة النعيم .

الخاتمة

أرى خاتمة لهذا الكتاب أبلغ من هذه المقطوعة
التي يعبر فيها الشاعر عن أمله في دخول الجنة جزاء
جهاده . والقراء لا محالة يذكرون محاولته إظهار الخلق أجمعين على
محاسن الشرق وما جاء به الإسلام من الحق . والمقطوعة تصور
الشاعر على باب الجنة يحاور حورية من حورها ملتصقاً
الرخصة بدخولها :

الحورية : اليوم أنا الموكلة بباب النعيم ، ولا أدري ما العمل
وأنت عندي ظنين ، أتراك حقاً من معشر المسلمين ؟
وهل استحققت دخول الجنة على جهادك ؟ هل أنت من
المجاهدين ؟ فاكشف إذن عن جراحك لتشهد بما قدمت
من المسأثر إن كنت من الصادقين ، فإنني لأحب لك
الدخول .

الشاعر : « جوته » ، فيم هذه المراسم كلها . دعيني أدخل الجنة على
كل حال . لقد عشت رجلاً أي أنني كنت من المجاهدين :
ألا حدى طرفك ، وأمعني النظر في فتاوى ، أشهدى

ما به من جراح الحياة النكراء ، اشهدى ما به من
جراح الحب المستعذبة . ومع هذا فما برحت مؤمناً
أتغنى بوفاء حبيبتي ، وبموذة الدنيا الدائرة وقضائها في
الآخرة حق المحسنين . لقد عملت مع صفوة العالمين ،
وجاهدت مع خيرة المجاهدين ، وتألق اسمي بحروف
مشبوبة الأنوار في قلوب الصالحين الأبرار .





المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها لولاه :

- ١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد
- ٢ — الاشتراكية والشيوعية للأستاذ علي آدم
- ٣ — الظاهر يبرز في القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد يونس
- ٤ — قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم
- ٥ — طب وسحر للدكتور پول غليونجي
- ٦ — فجر القصة للأستاذ يحيى حقي
- ٧ — الشرق الفنان للدكتور زكي نجيب محمود
- ٨ — رمضان للأستاذ حسن عبدالوهاب
- ٩ — أعلام الصحابة للأستاذ محمد خالد
- ١٠ — الشرق والإسلام للأستاذ عبدالرحمن صدقي

الثن قرشان فقط

المكتبة الشفافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها...

والطلب من :

- ١ - دار القلم ١٨ شارع سوق التوفيقية
- ٢ - مكاتب شركة توزيع الأخبار... في الإقليم المصري
- ٣ - وكلاء الشركة القومية ... في جميع البلاد العربية

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة
- تحتوي جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة
- متخصصين وبقرشين لكل كتاب •
- تصدر مرتين كل شهر • في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

المَرْيَخ

للدكتور محمد جمال الدين
والدكتور محمود خيرى